تفسير سورة الممتحنة

السيد علي الخامنئي

مكتب حفظ ونشر آثار
الإمام الخامنئي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

سورة الممتحنة، من الآية ٥

الـكـتـاب: تفسير سورة الممتحنة
Interpretation Of Surat Al-Mumtahanah
تأليف ونشر: مؤسسة الثورة الإسلامية للثقافة والأبحاث
(مكتب حفظ ونشر آثار الإمام الخامنئي)
تـــوزيـــع: دار المودة للترجمة والتحقيق والنشر
إخراج فني: شركة DPI

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة: الأولى، 2020م
ISBN: 978-622-7491-23-4

مكتب حفظ ونشر آثار
الإمـــام الـخـامـنـئـي

طهران، شارع جمهوري إسلامي، شارع فلسطين، زقاق هلالي، رقم ٢٦

يُطلب من دار المودة للترجمة والتحقيق والنشر على الأرقام التالية:
00961 70 724 300 - 00961 1 270 664

@arirpubl
(ARabic. Islamic Revolution PUBLications)

تفسير سورة الممتحنة

السيد عليّ الخامنئي

الفهرس

7 المقدمة

12 الجلسة الأولى:(٢٢/١٠/١٩٨٢م.)

12 الآيات: 1 _ 3 من سورة الممتحنة:

13 سوره الممتحنة، سورة للثّورة الحديثة

14 لمحة عامّة عن محتوى السورة

15 النهي عن موالاة الأعداء

18 الإيمان بالمعارف الإلهية سبب عداوة الكفار

19 وفي سنوات الحكم الطاغوتي، ذلك الحكم الظالم والجائر، كان هناك نحوان من الخطب وتفسير القرآن الكريم في البلاد:

22 إنّ معيار عداوتهم للجمهورية الإسلامية هو إيمانها بالله تعالى. وهذا المعيار نفسه كان في بداية الدعوة الإسلامية،

22 علامة النيّة الخالصة لله تعالى ألا نكون أصدقاء مع العدوّ:

23 سبب نزول الآية الكريمة:

27 خيانة المؤمنين:

28 الفرق بين الكفار المعاندين والكفار غير المعاندين

30 مداراة العدو لا تقلّل من عداوته
32 لا فائدة من الأنساب يوم القيامة
33 تفضيل العلاقة الإيمانية على العلاقة النسبيّة
36 والآن سنقرأ الآية، لكن هناك طريقتان في قراءتها:

38 **الجلسة الثانية:(٢٩/١٠/١٩٨٢ م.)**
38 الآيات 4 - 6 من سورة الممتحنة
39 إبراهيم عليه السلام أسوة الموحّدين الحسنة
42 تبرّي النبيّ إبراهيم عليه السلام من الكافرين
44 الفكر الالتقاطي خطأ بعض التيّارات الإسلاميّة
48 ثلاثة أصول في كلام النبيّ إبراهيم عليه السلام :
51 السبب الذي دعا النبيّ إبراهيم عليه السلام للاستغفار لعمّه
53 المقصود من (الأب) في الآية الكريمة
56 التوكّل على الله في المواجهة مع الكافرين
60 الطلب من الله الأمانَ من العدوّ:
60 الاستغفار من الزلّات
61 الاعتماد على الله العزيز:
61 الحاجة إلى الدّعاء جنبًا إلى جنب مع المواجهة
65 النماذج الحسنة:

68 **الجلسة الثالثة: (٠٥/١١/١٩٨٢ م.)**
68 الآيات: 7 - 10 من سورة الممتحنة
69 مواساة الله سبحانه وتعالى المؤمنين المهاجرين
70 البرنامج الإسلامي لتوجيه محبّة المسلمين
71 التعقّل منشأ المحبّة في الإسلام
74 جواز محبّة الكافرين غير الحربيين
77 ضرورة وضع حدّ فاصل مع الكفّار المحاربين

80 النّهي عن بناء علاقة صداقة مع الكفّار المحاربين
82 عمل الأنبياء هو الفصل بين الأخيار والأشرار في المجتمع
84 مجريات صلح الحديبيّة
86 تدبير النّبيّ الأكرم ﷺ لحماية النساء المهاجرات
90 لا قيمة للعلاقات الجاهليّة وغير الدينيّة

92 **الجلسة الرابعة: (١٩٨٢/١١/١٢ م.)**
92 الآيات: 11 -13 من سورة الممتحنة
93 خلاصة الجلسة الماضية
95 المنع من أخذ مهر المرأة التي التجأت إلى الكفّار
96 شروط بيعة النساء المسلمات الجديدات
98 الشرط الأول: عدم الشرك بالله سبحانه وتعالى
102 الشرط الثاني: عدم السرقة
104 الشرط الثالث: لا تزنين
105 الشرط الرابع: عدم قتل الأبناء
106 الشرط الخامس: عدم البهتان
107 الشرط السادس: اجتناب عصيان النّبي ﷺ في تعاليمه
110 البيعة كمال الإيمان
112 طلب المغفرة من الله
112 ضرورة استقبال التائبين
116 الأمر الإلهي بعدم محبّة أعداء الله

المقدمة

يعتبر القرآن الكريم آخر ذخر معنويّ للوحي الإلهيّ أُنزل على البشرية، وهو يهدي الناس إلى طرق السعادة والفلاح والصلاح.

ورغم تأكيد وصايا الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار عليهم السلام وتعاليمهم على قراءة القرآن الكريم وفهمه والعمل به وتحقيق مجتمع قرآني، فإنّه وللأسف، لم يُعتنَ -وعلى مرّ العصور- بهذه المهمّة العظيمة، وكان أثر ذلك وخيمًا ومرًّا، إذ تعاقبت على المسلمين حكومات وسلطات غاشمة أدّت إلى تخلّف المسلمين عن طريق السعادة لقرون متتالية.

وبانتصار الثورة الإسلامية الإيرانية بقيادة سماحة الإمام الخميني قدّس سرّه الشريف، تمّت العودة إلى القرآن الكريم وإلى الإسلام وإحياء التعاليم الدينية والقرآنية، وعاد الاهتمام مجدّدًا بالقرآن وفهمه والرجوع إليه والتدبّر فيه والعمل به في المجتمع الإسلامي الإيراني، وأُقيمت اللقاءات الخاصّة بالتلاوة والتفسير، وأجريت مباريات حفظ القرآن، والمفاهيم القرآنية وغيرها في شتّى أنحاء الجمهوريّة الإسلامية.

وكان سماحة القائد آية الله العظمى السيّد الخامنئي من مقيمي الجلسات القرآنية قبل انتصار الثورة الإسلامية، كما كان معلِّمًا لدروس فهم القرآن الكريم، وتفسيره، خلال مدة النضال ضدّ النظام

الطاغوتي والديكتاتوري. وبعد انتصار الثورة الإسلامية، وتولّيه قيادتها، كان دائمًا من المشجّعين والمؤكّدين البارزين على تعزيز وعلى توسعة إحياء الجلسات القرآنية تلاوةً وتفسيرًا.

ويوجد لسماحة القائد من مرحلة ما قبل الثورة الإسلامية وبعدها العديد من الجلسات التفسيرية، وهي تحتوي على مواضيع ونكات هامّة ومفيدة في فهم المعارف القرآنية الرفيعة.

ويستطيع قارئ هذه المجموعات التفسيرية أن يتعرّف بوضوح إلى أسلوبه الخاصّ في تفسير آيات القرآن الكريم وتوضيحها، ويدرك مدى التفاته إلى النكات المشرقة لهذا الكتاب النورانيّ في إقامة الحكومة الإسلامية وتأسيسها، وفي المواضيع الاجتماعية - السياسية، كما يمكن ملاحظة هذا الأمر بوضوح بالرجوع إلى تصريحاته المتعدّدة على مرّ السنين قبل وبعد انتصار الثورة الإسلامية وإلى يومنا الحالي.

وقد استخدم سماحة القائد السيّد الخامنئي في هذه الجلسات التفسيرية الأمثلة الواضحة والملموسة في المجتمع، وبما يناسب مستوى وعي المخاطبين، سواءٌ كانوا من طلاب الحوزات العلمية أم من طلاب الجامعات أم غيرهم...

ويظهر بوضوح للقارئ المحقّق من خلال دراسة جلسات سماحة آية الله العظمى السيّد الخامنئي القرآنية المتعدّدة أسلوبه وطريقته ونحو استنباطه من القرآن الكريم. ويمكن التعرّف إلى بعض خصائص وميّزات أسلوبه في كتابه «الأصول والأساليب التفسيرية» الذي نُشر سابقًا.

والكتاب الذي بين أيدينا هو نصّ محرّر لجلسات تفسير سورة الممتحنة، التي أقيمت في مرحلة رئاسته الجمهورية الإسلامية، وقد ألقاها في جمع من قوّات الحرس الثوري وأعضاء مكتب رئاسة الجمهورية على أربع جلسات من تاريخ 30 شهر مهر إلى شهر آبان من عام 1361 ه. ش.، تعرّض فيها لتمام 13 آية من هذه السورة القرآنية.

ويصرّح سماحته عن سبب اختيار هذه السورة والسور الأخرى لجزأي 28 و29 التي سيُنشر نصّها قريبًا إن شاء الله:

«إنّ سبب اختيارنا لهذه الآيات هو أنّ أغلبية سور جزأَي 27 و28 هي مدنية، وقد أُنزِلت على الرسول الأكرم في المدينة المنوّرة، وهي تتعلّق بمرحلة إقامة الحكومة الإسلامية، المرحلة التي تشبه ظروفنا الراهنة.

ونوع القضايا والمواضيع التي يحتاجها المجتمع لإقامة الحكومة يختلف عن نوع القضايا والمواضيع التي يحتاجها الناس خلال نضالهم لأجل تأسيس الحكومة الإسلامية، وأنتم تشاهدون ذلك أيضًا في مجتمعنا.

فلديكم اليوم قضايا معاصرة لم توجد قبل الثورة (قبل شهر بهمن لسنة 57 ه. ش)، وبالعكس أيضًا، حيث كان هناك في تلك المرحلة أمور لا وجود لها اليوم، فعلى سبيل المثال: قضية النفاق والمنافقين والعدالة الاجتماعية وقضية الحكومة والجهاد في جبهات الحرب وعشرات القضايا الأخرى من هذا القبيل، تُعتبر من القضايا الرئيسة بعد تأسيس الحكومة، وهذه هي القضايا التي تعرّض لها القرآن الكريم في الآيات المدنية».

ونرجو أن يتعرّف المجتمع الإسلامي الإيراني، ولا سيما الشباب الذين بيدهم مستقبل البلاد، إلى هذه المعاني والمفاهيم السامية للقرآن الكريم، مصباح الهداية البشرية، ومن ثمّ يقومون بواجباتهم في تحقيق المجتمع الإسلامي إن شاء الله.

ومن الله التوفيق...

الجلسة الأولى:
(١٩٨٢/١٠/٢٢م.)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات: ١ ـ 3 من سورة الممتحنة:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١﴾

سوره الممتحنة، سورة للثّورة الحديثة

تعتبر سورة الممتحنة المباركة، وهي سورة مدنيّة -رغم حجمها الصغير- إحدى السور ذات الأهمية الكبيرة في مجال الحركة الثورية، سواء أثناء الضغوطات وسيطرة الحكومة الظالمة أو في مرحلة الرفاه ووجود الحكومة الحقّة.

ويعلمنا الله سبحانه وتعالى في هذه السورة أن لا نُضيّع الحدود في مقابل العدوّ، فلا نظهر له الليونة، وأن نتّخذه عدوًا ويبقى عدوًّا كما هو عدوّ، لأنّه إذا تساهل المجتمع أو النظام أو فرد ما وأظهر اللين مع العدوّ، فسيضلّه العدوّ عن الموقف الذي هو عليه، ويخرجه عن الطريق الذي يسلكه، ولو كان بمقدوره أن يدمّره فسيفعل بلا شكّ، لأنّ العدوّ لا يرحم، لذلك يعتبر الجهل بالعدوّ وعدم الالتفات إلى عداوته من أكبر مصائب الناس والمجتمعات، سواء كان ذلك أثناء النضال ضدّ الحكم المستبدّ في المجتمع أو أثناء الحكومة الحقّة ومواجهة أعداء الخارج. وهذا ما ترونه اليوم في مجتمعكم أيضًا، فإنّني عندما أنظر إلى هذه الآيات الشريفة وأقرأ هذه السورة المباركة، أشعر أنّ كلمات هذه السورة تتعلّق بعصرنا الحاضر. وأقول لكم بشكل قاطع وصريح إنّه قبل انتصار الثورة،

عندما كنت أقرأ هذه السورة، كنت أشعر دائمًا أنّها تتعلّق بذلك الوقت، فكنّا نستمدّ منها، ونصبح في مقابل العدوّ أكثر حدّة واستحكامًا. وكذلك الأمر بالنسبة لهذه الأيّام، فإذا دقّق أحدٌ بهذه السورة، فإنّه سيصبح أكثر قوّة في مقابل العدوّ. والخطر يكمن في أن يختفي عن نظرنا الاصطفاف والتكتّل بيننا وبين العدوّ، بينما العدوّ أمامنا، وهو ينوي تدميرنا، ونحن في المقابل، ومن دون التفات، بل ومن دون أن نعرف ما نقوم به، ومن دون أن نتخلّى عن إيماننا أيضًا -فإيماننا محفوظ في موضعه ولا نفاق في البين- لكن لأنّنا لا ندقّق بما نقوم به، نُساوم العدوّ، مما يؤدي إلى تدمير أنفسنا وإلى تدمير طريقنا، وهذا خطر كبير على ثورتنا. وبالعودة إلى هذه الآيات القرآنية وهذه السورة المباركة نجد أنّها تنبّهنا من هذه الغفلة.

لمحة عامّة عن محتوى السورة

تبدأ السورة من أمر صغير، من قضية شخصية «قضية في واقعة»؛ ففي الصدر الإسلامي الأوّل أخطأ شخص ما فنزلت في حقّه هذه الآيات. تبدأ هذه السورة المباركة من هذه المناسبة، ثم تتدرّج بالاستدلال وتقريب الأمر إلى أن يشعر الإنسان أن القضية عامّة ولا اختصاص لها بهذا الشخص أو تلك المدة الزمنية، وإنّما عامّة تنطبق على الأزمان والأوقات كافة.

ولتقريب الأمر إلى الذهن، ولكي نفهم تكليفنا جيدًا، تقدّم لنا السورة بعد ذلك مثالًا من التاريخ، فتضرب لنا مثل النبيّ إبراهيم، لتختم تلك القضية، ويتّضح لنا جميعًا، أنّه مهما كانت الظروف

فعلينا أن نتصرّف مثل إبراهيم، لأنّها تقول إن ابراهيم أسوة لكم، وتصرّف إبراهيم أسوة يُحتذى به.

وبعد انتهاء بيان هذه القضية، تتحدّث السورة عن النساء المهاجرات اللواتي يقلن إنهنّ مسلمات، وهي إحدى القضايا الفرعية عن القضية الرئيسية التي أوصتنا بالتعامل مع الأعداء بجدّية وحزم وشدّة وبعيدًا عن التّسامح.

قد يقع بعض الذين آمنوا في شبهة، فيخطئون أو يرتكبون خيانة ما، فكيف يتّضح لنا تكليفهم؟ وكيف نتعامل معهم؟ وبالطبع، لدينا الكثير لنقوله في هذا المجال، نظرًا لوجود الكثير من الأمثلة على هذه القضايا في مجتمعنا -سواء مع أعدائنا الخارجيين أو مع أعدائنا الداخليين- كما توجد مصاديق كثيرة تنطبق عليها هذه السورة.

ونحن سنقوم بترجمة الآيات وشرحها بشكل مجمل لتطّلعوا على آيات السورة بشكل إجمالي، وفي أثناء ذلك سنرى كم يكون باستطاعتنا أن نذكر هذه النماذج والأمثلة.

النهي عن موالاة الأعداء

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، يا أيها الذين آمنوا بالإسلام وبهذا الدين وهذه الحركة، إنّ هذا الخطاب موجّه لكم ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾. وقد قلنا مرارًا إنّ كلمة (وليّ) تستعمل بمعنى الصديق وبمعنى الحليف، وبحسب القرينة التي ستذكر لاحقًا هي بمعنى الصديق الذي تربطك به علاقة صداقة فقط، لا بمعنى الصديق الذي تحبّه حقًّا، لأنّ مورد هذه الآية حالة خاصّة وتتحدّث عن قصّة حاطب بن أبي بلتعة، وسأروي لكم قصّته.

حاطب لم تكن له علاقة محبّة مع كفار قريش، بمعنى التعاطف الشخصي معهم، عندما كان يرسل الرسالة إليهم لإقامه علاقة صداقة تنتج مودّة. يقول عزّ وجل: لا يجوز أن تتّخذ من عدوّي وعدوّك أصدقاء تربطك بهم علاقة ودّية، ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾، وتساعدهم وتمنحهم العون والمودّة، لا تكن هكذا، لماذا؟ يذكر ربّ العالمين خاصّيّتين أو سمتين لهذا العدوّ، يذكر سمتين تميزان العدوّ الذي علينا النفور منه، وعدم مصادقته، ولا تشمله الآية إذا افتقر لواحدة منهما، كما تؤكّد الآيات التي تليها، وهاتان الخصوصيتان هما:

الخصوصية الأولى:

﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾، فالسمة الأولى لهؤلاء الذين هم عدوّ لكم وعدوّ لي هي أنّهم كفروا بالحقّ الذي أُنزِل عليكم، وهو الإسلام والقرآن والمعارف الإلهية، ولا يقبلون بها، فهم قد أنكروا هذه الأمور التي هي بأيديكم اليوم، والتي تعتقدون بها، فعلى سبيل المثال، نحن نعتقد أنّه لا ينبغي أن نستمدّ الأحكام والقوانين والمعايير والملاكات من الشرق ولا من الغرب، ولا من العقول البشرية الناقصة، ولا من الأعراف والعادات والتقاليد الإنسانية، وإنّما علينا أن نستمدّها كلّها من الله تعالى، وأعداء الله ينكرون ذلك ويسخرون منه.

أنتم تعتقدون أنّه لا ينبغي الركون للظلم، وأنّه ينبغي رفض أيّ حكومة جائرة، حتى لو كانت حكومة عالمية، وأن لا نستسلم أمام العقوبات حتّى لو كنّا وحدنا في هذا الطريق، وأن نواجه كلّ هذه القوى الجائرة عند الضرورة بالاتّكال على الله تعالى، بينما هم في

المقابل كانوا ينكرون هذه العقيدة ويؤكّدون أنّ عليكم تقبُّل ذلك والتعايش معه، ولا يقبلون بهذه العقيدة التي أخذتموها من الله تعالى، من رفضٍ لظلم الناس عامّة والمستضعفين خاصّة، ولو كان الظلم على فردٍ من أفراد المجتمع. أنتم تؤمنون بوحدانية الله تعالى، وتعتقدون بالحكومة الإلهية وحاكمية الإسلام وأن يعيش الناس في ظلّ طاعة الله، وهم في المقابل يرفضون ذلك كلّه ويتّهمونكم بالرجعيّة والتخلّف وأنّكم تعتقدون بالخرافات، ويسعون وراء أمور أخرى، وعليه فإنّ السمة الأولى لهم أنّهم يكفرون بما جاءكم من الله تعالى.

الخصوصيّة الثانية:

﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾، فسمتهم الثانية هي العدوان، بإخراج النبيّ ﷺ وإخراجكم من بلادكم وبيوتكم ومهاجمتكم، ولا تشمل هذه الآية الكافر الذي لم يهاجمكم، ولم يتآمر عليكم، حتّى لو كان لا يقبل معتقدكم، فما أكثر الكفّار في العالم وهم ليسوا على حرب معكم ولا نزاع ولا قتال بينكم وبينهم، وقد كان هذا الأمر في عصر النبيّ محمّد ﷺ، فكان الكثير من الكفّار في العالم أيضًا لكن لم يكن النبيّ على أيّ نزاع معهم. نعم، لقد كان منذ البداية في حالة صراع مع كفّار قريش، لماذا؟ لأنّهم تعاقدوا على عداوة النبيّ وتآمروا عليه، ولم يكن الأمر مجرّد اختلاف في العقيدة فقط.

على الجميع أن يعلم أنّ قضيّتنا ليست قضيّة اختلاف بالعقيدة. ويكذب الغرب والاستكبار الأمريكي وأنصاره ويضلّلون الرأي العام بنشر الإشاعات عنّا، بأنّنا نقتل كلَّ من يختلف معنا بالعقيدة.

لقد كان هناك الكثير، في بداية الإسلام وفي ظلّ الحكومة الإسلامية وفي المجتمع الإسلامي أيّام الرسول ﷺ، ممن لم يقبل بالعقيدة الإسلاميّة، فاليهود والنصارى في ذلك الوقت لم يقبلوا بالمعتقدات الإسلامية، [ومع ذلك لم يحاربهم النبيّ ﷺ لمجرد مخالفتهم للعقيدة الإسلامية]، وهذا الأمر موجود في مجتمعنا الإسلاميّ الراهن، حيث يوجد من يختلف معنا بالعقيدة، لا شأن لهم بالحكومة الإسلامية، لكنهم قبلوا بهذا النظام، وهم يعيشون بأمن وأمان ولا تتدخّل الحكومة في شؤونهم. نعم، تتصدى الحكومة الإسلامية لشخص وتيّار لا يكتفي بكفره بالله وبمعتقدات هذا الدين المقدّس، بل يهاجمها ويتعرّض لها. وهنا يحضرنا مثال عن عدوان حصل في عهد النبيّ ﷺ، وهو: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾، فلم يسمح الكفّار ببقاء النبيّ ﷺ في بيته وفي بلده آمنًا، بل أخرجوه من ذلك [البلد]، وأخرجوا المسلمين أيضًا، وهيؤوا الظروف التي أجبرت النبيّ ﷺ ومن آمن معه على الخروج من مكّة المكرّمة.

الإيمان بالمعارف الإلهية سبب عداوة الكفار

ما هو سبب معاملتهم لكم بهذه العدوانية؟ السبب الوحيد فقط هو إيمانكم بالله تعالى. إخواني، يجب أن نفهم هذه الحقيقة وهي أنّ سبب معارضة العالم لنا اليوم هو فقط لأنّنا نؤمن بالله تعالى، ولأنّنا مسلمون.

ولو كنّا لا نعتقد بالإسلام أصلًا، أو نعتقد بالإسلام الذي يريدونه هم، إسلام خالٍ من نصف أحكامه أو أكثر، وفاقد للكثير من عقائده وشرائعه وأحكامه، مثل إسلام كثير من الناس في هذه المنطقة

وغيرها ممّن هم عبيد لأمريكا، فيعتقدون بإسلام بلا أحكام الجهاد، بلا أحكام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بإسلام بلا ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾[1]، ويعتقدون بقرآن ليس فيه آيات كثيرة عن ثورة الأنبياء على الظالمين، فمن الطبيعي جدًّا أنّنا إذا كنا نعتقد بقرآن كهذا وبهذا النوع من الإسلام، فلن تكون لهم أيّة مشكلة معنا بكلّ تأكيد.

وفي سنوات الحكم الطاغوتي، ذلك الحكم الظالم والجائر، كان هناك نحوان من الخطب وتفسير القرآن الكريم في البلاد:

النحو الأول:

تلك الخطب وتفسير القرآن والكلمات الدينية التي لا تبالي السلطات آنذاك بها، ولا تفعل شيئًا لوقفها [لأنها لا تضرّ بالحكم].

النحو الآخر:

تلك الخطب وتفسير القرآن والكلمات الدينية التي كانت تسارع الحكومات الظالمة لمواجهتها بكلّ قوّة، ولم تكن في تلك الأيّام حيازة الموادّ المتفجّرة من ديناميت وما إلى ذلك أكثر خطورة من حيازة شريط كاسيت للإمام الخميني قدس سرّه، أو شريط لأحد الخطباء المتحدّثين عن الدين الحقّ والمذهب الحقّ. نعم، لقد كانت تُبيّن آنذاك بعض المبادئ الدينية إلا أنّهم ولحسن الحظّ لم يكونوا يفهمونها، فيسمحون بإلقاء بعض الكلمات والخطب وطباعة بعض الكتب في المجتمع، لكن لا يقبلون أبدًا بإلقاء خطب عن

(1) سورة النساء، من الآية: 141.

الجهاد، أو عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو إذا كانت الخطبة (كلمة حقّ أمام سلطان جائر)[1]، فإنّهم كانوا يتصدّون لذلك بكلّ ما أوتوا من قوّة، رغم أنّهم كانوا مسلمين. فهؤلاء لم يخرجوا عن الإسلام، لكن [رغم ذلك] كانت لديهم مشكلة مع الإسلام النبويّ، الإسلام الذي كان يشبه النموذج الإسلامي في بداية الدعوة الإسلامية.

لقد كنت أقول في تلك المدة الزمنية، على سبيل المثال: إنّ المسجد الذي وضع حجره الأساس في واشنطن إيزنهاور رئيس أمريكا في ذلك الوقت، من الواضح جدًّا أنّه لا يضرّهم ولا يشكّل أيّ خطر عليهم، ولا مانع من وجود مسجد كهذا ومن افتتاحه بأنفسهم أيضًا. والمثال الحقيقي والواضح ما ذكره الإمام الراحل عن إنكليزي سمع الأذان فسأل ماذا يفعل هذا الرجل في الأعلى؟ قالوا له: (يردّد الأذان)، فقال: هل لهذا الأذان علاقة بالسياسة البريطانية؟ فقالوا: ليس له أيّ علاقة، فقال الإنكليزي: فليؤذّن ما يشاء. نعم، لم يكن لديهم أيّ مشكلة مع أيّ عمل أو شخص لا يهدّد السياسة الإنكليزية، ولكنّهم يتصدّون بشراسة لكلّ من يتعرّض للسياسة الخارجية ويفضح أعمالها.

إذًا، يمكن القول إنّ سبب معارضتهم في تلك الأيّام هو الإيمان بالله تعالى، وهو السبب نفسه في هذه الأيّام الذي يجعلهم يعارضون الجمهورية الإسلامية. ولو كان باستطاعتهم في تلك الأيّام القضاء على المؤمنين، حتّى المؤمنين الذين قد اكتفوا بالإيمان في

(1) الكافي، ج 5، ص 60.

قلوبهم ولم يتعرضوا لأعمال أجهزة السلطة، لفعلوا ذلك، فقد كانوا يسعون لنزع الإيمان من قلوب المؤمنين، لكن سلب الايمان من القلوب ليس أمرًا سهلًا، مع ذلك كانوا يخطّطون ويتآمرون ويضعون البرامج الثقافية والاقتصادية وبرامج مختلفة بهدف سلب الإيمان من قلوب الناس، أو تلويثها بالكفر والإلحاد. وعليه فالمعيار في معاداة البعض لفئة من الناس هو إيمان هذه الفئة بالله تعالى. وتبيّن الآيات الكريمة من سورة البروج هذا الواقع، يقول تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾

تبيّن هذه الآيات الكريمة أنّ ملاك معارضتهم وعداوتهم لهذه الجماعة المؤمنة هو إيمانهم بالله تعالى، لذلك رموهم في النار وجلسوا يتفرّجون كيف تحترق أجسادهم وجلودهم وعظامهم حتّى تحوّلت إلى جمر ورماد، وليس لهم ذنب إلا ذنبًا واحدًا فقط وهو أنّهم يؤمنون بالله تعالى.

والسبب الرئيس اليوم لمعاداة الجمهورية الإسلامية هو أنّها في طريق الإسلام، وعلى الرغم من شعارات الناس، وإيمانهم، وعلى الرغم من توجّههم الأساس، فإنّ هناك فريقًا يعمل من موقعه لتضليل الناس ودفعهم نحو الكفر أو إضعاف إيمانهم أو تمييعه، أو التقليل من شأن الأحكام الإلهيّة في الجمهورية الإسلامية. ومن الطبيعي أن لا يعادي الأعداء مجتمعًا إسلاميًّا كهذا لا يعتني بأحكامه، ولو تسلم زمام الأمور الليبراليون والوطنيون الذين لا يعتقدون بالإسلام، وجرّوا البلاد إلى الكفر أو إلى قلّة الإيمان،

فبالتأكيد لن يكون هناك حصار اقتصادي، ولا صراعات شرسة ضدّ الجمهورية، ولو تسلم شخص من الذين لا يؤمنون بالإسلام رأس السلطة في الجمهورية الإسلامية بدلًا عن الإمام الراحل، أو كان هذا الشخص البديل مسلمًا لكنّه لا يرى ضرورة تطبيق الأحكام الإسلامية في المجتمع، فكونوا على ثقة أنّه لن تحصل وقتها أيّ مشكلة مع الثورة ومع الجمهورية الإسلامية.

إنّ معيار عداوتهم للجمهورية الإسلامية هو إيمانها بالله تعالى. وهذا المعيار نفسه كان في بداية الدعوة الإسلامية.

وكان السبب الوحيد لطرد المسلمين هو إيمانهم بالله، فقد أخرجوهم من منازلهم، وطردوهم من مجتمعهم لأنهم يؤمنون بالله ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾. وكانت كلمة ﴿رَبِّكُمْ﴾ في هذه الآية لإظهار العلاقة الحميمة بين الله سبحانه وعباده، وإلا فقد كان باستطاعته أن يقول: أن تؤمنوا بالله فقط، فكلمة ﴿رَبِّكُمْ﴾ تعزز القرب والارتباط أكثر، وتقول إنّ الإيمان بالله ربّكم دفع هؤلاء لمعاداتكم والانتقام منكم، مع أنّه من حقّكم الإيمان بربّكم الذي خلقكم وصورّكم ورزقكم.

علامة النيّة الخالصة لله تعالى ألا نكون أصدقاء مع العدوّ:

﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾. هذه إن الشرطية مرتبطة بما قبلها أي مرتبطة بالمؤمنين، والمعنى خطاب من الله أنّه: يا أيها المؤمنون إذا خرجتم لأجل الجهاد، إذا خرجتم من بيوتكم لطلب مرضاة الله عزّ وجلّ فكيف في بعض الأحيان يمكن أن يخطر ببال أحدكم ويفكّر بإنشاء رابطة مع الكفار؟ فإذا خرجتم للجهاد

وكان هدفكم فعلًا الجهاد فلا يمكنكم أن تأخذوا عدوّكم وعدوّي صديقًا لكم، ولا يمكنكم إنشاء علاقة صداقة معه.

وبهذا العرض تصبح القضية واضحة: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ﴾ وهذا الخروج كان بهدف الجهاد ﴿فِي سَبِيلِي﴾ وفي طريقي ﴿وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِيۚ﴾، فابتغاء تعني: الطلب، ومرضاة بمعنى الرضا، أي لطلب لذّة الرضا الإلهيّ، إذًا يجب أن لا تتّخذوا عدوّكم وعدوّي صديقًا لكم. وهنا كأنّ الآية تجيب عن سؤال مقدّر وهو: ماذا فعلنا أو ما هي الصلة التي أنشأناها مع العدوّ؟

والجواب ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ أي إنكم في الخفاء تعلنون لهم عطفكم ومودتكم ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْۚ﴾، وبالطبع إنّ الله يعلم ما كان مخفيًّا وما كان ظاهرًا وبارزًا، لأنّه إذا كان أحد ما يعلم ما تخفيه فمن البديهي أن يعلم ما تُظهر بشكل أولى.

فكلمة ما أعلنتم ليست في مقابل ما أخفيتم، لأنّ ما أعلنتموه واضح بشكل طبيعي، فلا داعي للإخبار عنه، لكن هذا التعبير يراد به أنّ الله يعلم ما تظهرونه وما تخفونه، أي أنّه مطّلع على مجموعة أعمالكم الباطن منها والظاهر، ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ وإذا قام أحدكم بهذا الفعل ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ فهو حتمًا قد تاه عن الطريق المستقيم. واعلموا أنّه إذا كان لديكم مع عدوّ الله علاقة مخفيّة أو سريّة فقد انحرفتم بذلك وضللتم عن الصراط المستقيم

سبب نزول الآية الكريمة:

أعتقد أن سبب نزول الآية الكريمة هو أنه في إحدى حروب النبي ﷺ -وأظنّ أنها إحدى الحروب بين مشركي مكّة ومسلمي

المدينة- كان هناك شخص من أصحاب الرسول ﷺ يُدعى حاطب بن أبي بلتعة، آمن بالنبيّ وجاء إلى المدينة، وأصبح من المهاجرين، إلا أنّ زوجته وأولاده لم يؤمنوا وبقوا في مكّة ولم يهاجروا معه، أو أنّهم آمنوا ولكن لم يهاجروا إلى مكّة (لا فرق). ولا يخفى أنّ الإيمان بالله تعالى ذو قيمة عظيمة، لكن إذا كان أحدهم يؤمن بالله تعالى ولم يهاجر، فلا حقّ ولاية له، بمعنى أنّ المؤمنين غير ملزمين بحمايته لأنّهم كانوا ملزمين بحماية المؤمنين فيما لو هاجروا من مكّة إلى المدينة. وقد ذكر هذا المعنى في آيات القرآن الكريم، ولسنا بصدد شرحه في هذا الوقت... لقد كان قلِقًا على زوجته وأولاده في مكّة.

وهناك الكثير من مسلمي ومؤمني قريش وغير قريش قد هاجروا إلى المدينة، فمن جاء إلى المدينة وبقيت زوجته أو جاءت زوجة وبقي هو، أو بقي أخوه، أو هاجر أخوه وبقي هو، فقد كان هناك الكثير من الفوضى في شكل العلاقات الإيمانية، حيث انفصلت الزوجة عن زوجها، والأخوة عن بعضهم بعضًا، والأب عن أبنائه، فكان يهاجر الابن ويبقى الأب، أو بالعكس ...

نعم، بالنسبة لأولئك الذين ينتمون إلى عشائر وقبائل كبيرة، فقد كانت القبيلة نفسها تتولّى حماية نسائهم وأطفالهم، طبق عادات القبائل في مكّة، ولم يكن يتجرّأ أحد -وبلا سبب- على إيذائهم والتعرّض إليهم، ممّا يجعل النساء والأطفال مصونين آمنين. ولكن زوجة وأطفال هذا الرجل المسكين -حاطب بن أبي بلتعة- بقوا في مكّة، ولم يكن عنده عشيرة أو قبيلة تتولّى حمايتهم، لذلك كان يخشى أن يتعرّض لهم كفّار مكّة بالأذى، وكان حدسه في محلّه، حيث انتبه كفار مكّة لهذا الأمر، واستغلّوا نقطة الضعف هذه،

وعرضوا على زوجته وأطفاله أنّهم إذا أحبّوا البقاء دون أذيّة فلتكتبي لزوجك وأبيكم أن يخبرنا إن كان النبيّ ﷺ ينوي مهاجمتنا أم لا.

وفعلًا، كتبوا رسالة لحاطب كي يخبرهم بهذا الأمر حتّى يأمنوا شرّ الكفّار. وهنا كانت تكمن نقطة ضعف الإيمان عند هذا الرجل المسكين حاطب بن أبي بلتعة، فكانت نقطة ضعفه هي محبّته لزوجه وأبيه وأطفاله. يا للأسف لنقاط الضعف هذه، فقد يكون الإنسان مؤمنًا بالله تعالى، إلا أنّ أخاه أو ابنه أو أباه أو أمّه في غير طريقه، وهنا تكمن نقطة ضعفه، فمحبّة الإنسان لعائلته التي لا تؤمن بالله تعالى قد تجّره إلى جهنّم. وقد أثّرت نقطة الضعف هذه بهذا الرجل المسكين، فكتب رسالة ذكر فيها أنّ الرسول ﷺ ينوي أن يشنّ حربًا ضدّكم في التاريخ الفلاني. وهذا منه خيانة عظيمة وفاضحة، ثمّ أعطى الرسالة لامرأة فحملتها واتجهت بها إلى مكّة، لكن جبرائيل عليه السلام كان يُطلع النبي الأكرم على هذه الأمور المستورة، وليس من المصلحة أن يُراعى ما يراه هذا الرجل المسكين وضعيف النفس من منفعة ومصلحة له على حساب ما فيه ضرر للمجتمع الإسلامي، ولن يرضى الله سبحانه وتعالى بهذا الأمر. وهنا في هذه الحادثة أرسل النبيّ الأكرم أمير المؤمنين عليه السلام والزبير إلى مكانٍ حدّده لهما، وفي إحدى الروايات أرسل معهما المقداد، وقال اذهبوا إلى المكان الفلاني وستجدون امرأة مسافرة تخفي رسالة إلى كفّار قريش. وصلوا إلى المكان المحدّد ووجدوا فعلًا امرأة تستعدّ للرحيل، عندها منعوها وطلبوا منها الرسالة، قالت: لا أحمل رسالة، فأصرّوا عليها، وهي في المقابل ظلّت على موقفها بأنّها لا تحمل رسالة، وقد ورد في بعض الروايات أنّهم فتشوها، وعلى هذه الرواية

من الضروري وجود إحدى النساء معهم قامت بتفتيشها، لأنّ طبيعة الحال تفرض أن لا يفتّش الرجال النساء، وعلى كلّ حال، عندما رأوا أنّها لا تملك رسالة، قال الزبير: فلنعُدْ، إلا أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال: حتى لو لم نجد شيئاً في ملابسها أو في أيّ مكان آخر، إلا أنّه لا بدّ أنّها تحمل رسالة، لأنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لا يكذب ولا يخطئ في إخباره، والرسالة تخفيها في مكان ما ولا بدّ من أن نحصل عليها، انظروا إلى الإيمان، فهو يعني اليقين الثابت بكلّ ما يقوله النبيّ وبأيّ وعد إلهيّ، فعلى سبيل المثال: إذا قالوا لك إنّ في هذه الغرفة كتابًا، ولكنّك بحثت عنه ولم تجده، فالإيمان يعني أن تكون على يقين بأنّ الكتاب موجود في الغرفة إلا أنّك أنت لم تعثر عليه، ولا ينبغي الشك بكلام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أو بالوعد الإلهيّ، لأنّهما حقّ ولا يخطئان ولا يخالفان الواقع. وبالعودة إلى الحادثة نجد أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال إنّه متأكّد من وجود الرسالة معها، لكنّها تكذب ولا تعترف، وهنا استلّوا سيوفهم وقالوا لها سنقتلك إنْ لم تسلّمي الرسالة.

ومن الطبيعي أنّ هذه المرأة لم تكن مهتمّة لرسالة الآخرين لدرجة أن تُقتل حفاظًا عليها، فقالت لهم انتظروا، ثمّ رفعت يدها واستخرجتها من بين طيات شعرها وأعطتهم إيّاها.

حملوا الرسالة وتوجّهوا إلى النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، عندها استدعى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم حاطبًا وقال صلى الله عليه وآله وسلم له: يا حاطب ما هذه الرسالة التي كتبتها؟

انزعج هذا المسكين جدًّا وخجل من نفسه، وقال يا رسول الله لم أكن قاصدًا الخيانة، ولا النفاق ولا الكفر بك،

لكن السبب الذي دعاني لكتابتها هو تخفيف الضغط عن زوجتي وأطفالي المساكين في مكّة.

خيانة المؤمنين:

دعوني أخبركم بنقطة: في بعض الأحيان قد يخون المؤمنون دون أن يفقدوا إيمانهم، فنحن نعتقد أنّه تتحقّق خيانة الله أو الرسول أو الثورة أو القائد عندما يعلم الإنسان أنّه يقوم بالخيانة، فينوي الخيانة ويقدم عليها، لكن هذا ليس صحيحًا، لأنّه قد تتحقّق الخيانة من الشخص من دون أن يعلم أنّه يخون في عمله. مثلًا عندما تتكلّم أمام صديق لك لمجرّد إسعاده بكلام لا ينبغي البوح به، فإنّ ذلك يعتبر خيانة، عندما تنقل كلامًا من بيتك أو من عملك أو من مدينتك لشخص ما، لكن لا تعلم أنّ هذا الشخص كان يريد استخدام هذه المعلومات ضدّ الثورة أو ضدّ مؤسّسات هذه الجمهورية، ويقدّمها لبعض الجهات أو بعض التنظيمات، فإنّ هذا الأمر يعتبر خيانة أيضًا، لأنّك تعلم ولا تعلم في الوقت نفسه، ويكفي أنّك تعلم أنّه لا يريد هذه المعلومات لخدمة الثورة حتّى يصبح ما قمت به خيانة. عندما يخبر صديق صديقَه بأنّه في القسم الفلاني أو في المكان الفلاني أو البلد أو المنطقة أو في ذلك السفر أو في ذلك العمل يوجد أمر كذا، فإنّ هذا الأمر فيه من تقديم المعلومات لشخص يعلم أنّه لا يضع هذه المعلومات لصالح الجمهورية الإسلامية ولا لصالح الثورة الإسلامية، لكن مع ذلك يقدّم له هذه المعلومات فقط لأجل الصداقة فيما بينهما، أو كي لا يزعج خاطره، أليس هذا الأمر خيانة؟! نعم إنّها خيانة رغم أنّه

يحافظ على إيمانه، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾[1]، فخيانة الله عزّ وجلّ من أعظم الذنوب، وكما ذكرنا أنّ الإنسان لا يدرك أحيانا أنّه يخون، كحال حاطب بن أبي بلتعة الذي كان مؤمنًا، والرسول أيّد ذلك، ولم يكن متعمّدًا الخيانة، لذلك لم يعاقبه النبيّ وإلا كان جزاؤه الموت، لم يعاقبه لأنّه خان وهو مؤمن، فعلينا الحذر جيّدًا فلا نخون الله ولا نخون الرسول ولا الإسلام ولا الثورة ولا القائد. هذه النقطة جديرة بالاهتمام، لذلك غضّ النبيّ عن ذنبه وعفا عنه.

الفرق بين الكفار المعاندين والكفار غير المعاندين

إنّ الأعداء الذين ذكروا هم كفّار قريش. وقلنا إنّ ما يميّز هؤلاء أنّهم كفّار وليس لديهم عقيدة ولا مبادئ، وقد أظهروا كفرهم من خلال تصرّفاتهم وخياناتهم العملية. وهذا بالنسبة لنا أصل كليّ، فليبقَ ببالنا.

ذكرنا أنّ الكفّار وغير المسلمين الذين في مجتمعنا، إذا لم يخونوا مجتمعهم ولم يضرّوا بأحد ولم يطعنوا هذه الجمهورية من الخلف، وإذا لم يسعوا للإطاحة بالثورة ولا بالنظام، فإنّنا نتقبّلهم كما تقبّلهم النبيّ ﷺ، وكما تقبّلهم أيضًا خلفاء النبيّ ﷺ، وكما كان يتعامل معهم الجميع في مدة الحكومة الإسلامية، حيث تقبّلوهم وأبدوا لهم المحبّة والاحترام. لكن إذا كان هذا الكافر لا يؤمن بالله ولا بالرسول ولا بالثورة الإسلامية ولا بالقائد ويتظاهر بأنّه يؤمن بكلّ ذلك، ومن

(1) سورة الأنفال، من الآية: 27.

ثمّ يطعننا في الظهر، ويتعامل مع أعداء الثورة ومع أعداء الإسلام، فإنّنا لا يمكن أن نتحمّله ولا أن نتقبّله. كيف يمكننا ذلك؟ كيف يمكن التسامح معه؟ فإنّ ذلك مصداق قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾، أولئك الذين يتعاملون مع أعداء الخارج، أولئك الذين يريدون تدمير النظام الإسلامي، تلك المجموعات التي تدعمها القوى الخارجية المعادية للثورة والنظام -تدعمها ماليًا، وتؤمّن لها الأسلحة، وتربّي عقول أفرادها على الفكر الإجرامي، وتعلّمهم النظريات وتضع لهم الخطط- بهدف تدمير النظام الإسلامي بكلّ الطرق وبكلّ طاقاتهم، فضلًا عن أولئك الأشخاص الذين تستخدمهم هذه القوى وتحرّكهم كالدمى، فيضعونهم داخل المجتمع ويتلاعبون بعقولهم كما يشاؤون ليصبحوا هم أنفسهم الأدوات المنفّذة ويتحركون كما تريد تلك الأيادي، والعقول المخططة- فإنّ هؤلاء لا يمكن التغاضي عنهم أبدًا، فإذا كانت الجمهورية الإسلامية ضدّ أمريكا، وضدّ القوى العظمى، وإذا كانت ضدّ أولئك الذين يخطّطون لضرب الثورة، فلماذا ينزعجون من ذلك؟ فإنّ هذا التصرّف منّا هو أسلوب شائع لدى جميع البشر، ولدى كلّ أصحاب العقول، حيث يواجهون ويقاومون كلّ من يريد القضاء عليهم، ولأنّنا نملك إيمانًا وإيماننا أعزّ علينا من أنفسنا، لذلك نواجه ونقاوم كلّ من أراد أن يسلبنا هذا الإيمان. وهذا الأمر يترك أثرًا على حياتكم الشخصية، وعلى علاقاتكم الاجتماعية، وله أيضًا تأثير على تحديد الاتجاهات في الجمهورية الإسلامية؛ فإنّنا كذلك في تحديد وبناء اتجاهاتنا مع الآخرين، فلو أراد أحد ما أن يتحدّانا أو يحاربنا فسيجدنا له بالمرصاد، ولن نبني أيّ علاقة صداقة معه.

مداراة العدو لا تقلّل من عداوته

وتكمل الآية القرآنية بقوله تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ أي إذا وصلوا إليكم ووجدوكم سيتسلّطون عليكم، وسيكونون أعداء لكم. وهنا نسأل: لمن يوجَّه هذا الخطاب؟ هل يصحّ أن يوجَّه للمؤمنين؟

الجواب: من الواضح أنّ هؤلاء أعداء للمؤمنين منذ البداية. وعليه يكون هذا الخطاب موجّهًا للشخص الساذج الذي يتخيّل أنّه من خلال مساعدة العدوّ ضدّ الثورة الإسلامية، يستطيع كسب قلب العدوّ والتخفيف من عداوته، وتقليلها.

وما زلت أذكر بدايات الثورة الإسلامية، حيث كان هناك من يقول: لا تقوموا بمعارضة أمريكا كثيرًا، متوهّمين أنّنا إذا قدّمنا تنازلات لأمريكا أو قلّصنا من مواجهتها فإنها ستقبلنا بعنوان ثورة إسلامية، ويتقبّل الأمريكيون منّا أن نطبّق أحكام الإسلام، وأن نُنشئ مجتمعًا إسلاميًا ينشر التعاليم الإسلامية، ومن ثمّ تأخذ بعض الأحزاب وبعض الأمم هذه المعارف منّا، وبعد ذلك نغلق نحن نفطنا عن أمريكا، وفي المقابل نقوم بدعم وتعزيز أعدائها، وإضعاف أصدقائها. هؤلاء كانوا يتوهّمون أنّنا إن لم نعارض أمريكا ولو بمقدار حبّة خردل صغيرة، لا سياسيًّا ولا اقتصاديًّا ولا حتّى بالشعارات، فإنّ أمريكا ستتحمّل تلك الأمور منّا. يا لهم من أشخاص سذّج! العدوّ يبقى عدوًّا، حتّى مع من يفكّر أو يتوهّم أنّه من خلال بناء علاقة معه يستطيع أن يقلّل من عداوته ويكسب ودّه ويستحوذ على محبته، فالعدوّ لا يفرّق بيننا، فإنّنا جميعًا بالنسبة إليه أعداء، وهذه الآية تريد القول إنّ العدوّ لا يستثنيك من عداوته حتى لو غمزك،

فأنت غير مستثنى من عداوته، لأنّك واقعًا عدوّ له أيضًا، والعدّو لو استطاع السيطرة علينا جميعًا فسيتّخذ أصحاب هذا التوهّم أعداءً له أيضًا، ولا يُفرق بين أحد من أبناء مجتمعنا أبدًا، وهذا هو واقع الحال.

ولو أردنا أن نشير إلى أولئك الأشخاص الذين في إيران ويسعون لبناء علاقة مع أمريكا، يجب عليهم أن يعلموا جيّدًا أنّه لو استطاع الأمريكيون أن يسيطروا على إيران -لا قدّر الله- وهذا الأمر من فرض المحال، فلو استطاعوا العودة مجدّدًا للسيطرة على إيران فإنّهم لن يجعلوا أتباعهم ومن تعامل معهم أسيادًا على إيران، لأنّهم لا يريدون أسيادًا وإنّما يريدون عبيدًا لهم. ونكرّر أنّه إذا عاد الأمريكيون إلى هذه الدولة، وبالطبع لن يعودوا بفضل من الله وهمّة الشعب، ولكن لو فرضنا -ولو من باب فرض المحال- أنّهم عادوا، فسيجعل الأمريكيون أولئك الأشخاص الذين يعملون لصالح أمريكا -حيث يوجد بعض الأشخاص ومن فئات مختلفة يعملون لصالح الأمريكيين- عبيدًا عندهم، ولا يتوهّموا أن يجعلوهم أسيادًا أبدًا، حينها يكونون عبيدًا لأمريكا، بينما هم اليوم أسياد، وهم اليوم أحرار، وهم اليوم مستقلّون، والجمهورية الإسلامية لا تريد استعباد أحد، ولا أحد يطلب استعباد أحد، وإنّما تريد أخوّة، وتريد زميل عمل، وتريد نظيرًا في الرأي. وبحمد الله تعالى لا يسيطر أحد على الجمهورية حتّى نقول إنّه يريد عبيدًا عنده، فإنّنا جميعًا عبيد لله سبحانه، لكن لو عادوا للسيطرة علينا فسيكونون أسيادًا ويحتاجون إلى عبيد، ويتّخذون مَن تعامل معهم عبدًا، وبالتالي لن يبنوا علاقة صداقة أو محبّة مع أحد منّا، ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً

﴿وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾، فحديثهم معكم سيكون سيّئًا، والتعامل معكم سيكون خبيثًا، ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾[1] بالإسلام وبهذه المعارف وبهذه المعتقدات الدينية.

لا فائدة من الأنساب يوم القيامة

ثمّ تتطرّق الآية إلى مسألةٍ وهي: كيف يفرّط الإنسان بمحبّة الله تعالى من أجل قومه أو رحِمه أو من أجل ولده ومَن بحكم ذلك؟ فهذه الآية الكريمة تنصح الإنسان بأنّه ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾[2]، إنّ الله سبحانه وتعالى سيفرق فيما بينكم، فولدك الذي لا يؤمن بما تؤمن به، وأقاربك الذين لا يعتقدون بما تعتقد به، فإنّهم حتى لو كانوا في الدنيا في كنفك وتحت ظلّك لكن سيفصل بينكم يوم القيامة [بسبب هذا التفاوت في العقيدة] فهم سيذهبون إلى جهنّم وأنت تذهب إلى الجنّة إن شاء الله.

ولماذا باقترابك منه في هذه الدنيا تبعد نفسك عن الجنّة؟ جنّة المؤمنين! لماذا تبعد نفسك عن الله؟ لماذا تدفع بنفسك إلى جهنّم؟ هل هذا تصرّف العقلاء؟ نعم، هذا هو الواقع، فإنّه يوم القيامة سيُفصَل بين المؤمنين والكافرين، حتّى لو كانوا أقاربك وأرحامك، ففي يوم القيامة لا ينفع النسب ولا الصديق، يقول تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ

(1) سورة الممتحنة، من الآية 2.

(2) سورة الممتحنة، من الآية: 3.

وَبَنِيهِ﴾[1]، وكذلك يشير إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[2]. نعم، إنّ المتّقين الذين كانوا أصدقاء لك في هذه الدنيا ستبقى صداقتهم في الآخرة، لأنّ المعيار في ذلك العالم هو التقوى، لكن لو لم نكن من أهل التقوى، أو قمنا ببناء صداقة ومحبّة مع من لا يعتقد بعقيدتنا، أو لا قدّر الله، لو تفاوتت عقيدتنا في هذه الدنيا مع عقيدة أو فكر بعض أقربائنا أو أرحامنا أو أبنائنا أو أخوتنا أو والدينا، فإنّه يوم القيامة سيفرّق الله بيننا، فهم يسوقهم إلى جهنّم، ونحن يحتفي بنا إلى الجنّة. إذا كان الأمر كذلك، فلماذا نقرّب أنفسنا في هذه الدنيا من النار؟

تفضيل العلاقة الإيمانية على العلاقة النسبيّة

تحيّة لتلك الأمّ التي طردت أبناءها عنها لأنّهم كانوا كافرين بالله تعالى. تخلّت عن عاطفة الأمومة القوية واستبدلتها بأسمى وأرفع محبّة وجعلتها هي المعيار، وهي محبّة الله سبحانه ومحبّة الإيمان ومحبّة الاعتقاد بالله. تحيّة لذلك الأب الذي أبعد أبناءه عنه لأنّهم كانوا أعداء الله وكافرين به تعالى وعاقبهم لأجل هذا الكفر. فلدينا في هذا المجتمع أمثال هؤلاء الآباء والأمهات. تحيّة لذلك الأخ الذي حكم بالعقاب على أخيه الكافر الذي عمل ضدّ الثورة الإسلامية، فلم يحزن ولم يشعر تجاهه بعلاقة الأخـوّة، لأنّ الأخـوّة هي أخوّة

(1) سورة عبس، الآيات من 34 إلى 36.

(2) سورة الزخرف، الآية: 67.

الإيمان وبين المؤمنين، فلا أخوّة حقيقية مع الأخ النسبي إن لم يتّفق معك بالعقيدة والفكر، ولم يشابهك بالإيمان، وعلى حدّ تعبير شعر مولوي:

(قد يكون هندي وتركي يتكلمان نفس اللغة (متفقان) وقد يكون تركيين لكنهما مختلفان فالانسجام القلبي أمر مختلف ومن ينسجم معك بالقلب أفضل ممّن يتّفق معك باللغة)[1].

ونحن علينا أن نعرف هذا الأمر جيّدًا، فعندما نتعلّق بأقاربنا وأبنائنا وآبائنا وأمهاتنا وإخوتنا وأزواجنا فلأنهم مؤمنون بالله تعالى، وفي اليوم الذي يكفرون فيه بالله تعالى فهم ليسوا أقرباءنا ونحن غير متعلّقين بهم، تمامًا كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم نَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا وَإِخْوَانَنَا وَأَعْمَامَنَا مَا يَزِيدُنَا ذَلِكَ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا"[2].

وهناك شاهد آخر، فعندما عاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم من حرب بني المصطلق، كان عبد الله بن أبي سلول معه، وقد أصبح نفاقه واضحًا للعيان، عندها جاء ابنه المؤمن إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وقال له: هل تسمح لي بأن أشهر سيفي وأمنع أبي من دخول المدينة؟ وإذا كان القرار أن يُقتل أبي، فأذَنْ لي يا رسول الله بأن أقتله بنفسي ولا يقتله أحد من أخوتي المؤمنين فيبقى في قلبي مقدار حبّة

(1) ای‌بسا هندو و ترک هم‌زبان ای‌بسا دو ترک چون بیگانگان پس زبان همدلی خود دیگر است همدلی از هم‌زبانی بهتر است مولوي، المثنوي المعنوي، الدفتر الأوّل، مع قليل من التصرف.

(2) نهج البلاغة الخطبة 56.

خردل من الحزن وأفكّر في نفسي أنّ فلانًا قتل أبي ولم أثأر له، حيث لم يمرّ وقت طويل على تلك العادات الجاهلية. لقد قام السابقون بمعجزة، وكذلك الأمر حصل مع شعبنا، فإنّ بعضهم صنع المعجزات، فهم رغم وجود الثقافات المنغمسة بالجاهلية نجد [تضحياتهم] الجسيمة هذه في سبيل الله لأنّهم لا يرون شيئًا غير الله تعالى، وقد قدموا أرواحهم وكل ممتلكاتهم وأبناءهم فداءً في سبيل الله.

لاحظوا كلام ابنه حيث قال: إذا كان القرار أن يُقتل أبي، فأذَنْ لي يا رسول الله أن أقتله بنفسي ولا يقتله أحد من أخوتي المؤمنين، فيبقى في قلبي مقدار حبّة خردل من الحزن وأفكّر في نفسي أنّ فلانًا قتل أبي ولم أثأر له.

هذا هو الإيمان بالله! ولماذا؟ لأنّه بحسب الظاهر هذا أب وذاك ابن، وتوجد بينهما علاقة نسبيّة مادية، لكن بعد الموت وفي يوم القيامة، ستنقطع هذه العلاقة، ويكون كلّ واحد منهما في جهة، فهل يعقل التمسك بهذا الأب؟ بعلاقة نسبيّة مادية مدّتها في هذه الدنيا قصيرة لكنّها ستسبب له المتاعب وتؤدّي به إلى جهنّم؟! كلا هذا ليس عقلانيًا، لذلك تخلّى عن أبيه أمام رسول الله ﷺ. ومن هنا يتضّح كلام الإمام موسى الكاظم عليه السلام حيث قال: (المؤمن أخو المؤمن لأبيه وأمّه)[1]، بمعنى أنّ العلاقة الإيمانية تسبّب أخوّة تامّة كاملة.

فإذا كان الأخ -من الأب والأم- غير مؤمن فهو مثل ابن النبيّ

(1) عدّة الداعي، ص 187.

نوح عليه السلام ومثل كثيرين ممّن ذُكروا عبر التاريخ، ليسوا في الحقيقة أبناء لذلك الأب وتلك الأم، يقول تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾[1]، فقد وعد الله سبحانه وتعالى نوحًا أن ينجيه هو وأهله من الغرق، ولكن شاهد نوحٌ ابنه يغرق، فقال نوح عليه السلام لقد وعدتني يا ربّي أن تنجيني أنا وأهلي من الغرق وهذا ابني منّي، فقال سبحانه وتعالى ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾؛ هو ابنه من لحمه ودمه في هذه الدنيا، ولكن الله أنكر عليه ذلك، لماذا؟ لأنه لا يختزن في قلبه إيمان نوح. إذًا، إنّ العلاقة الأساسية هي علاقة الإيمان والعقيدة.

والآن سنقرأ الآية، لكن هناك طريقتان في قراءتها:

الطريقة الأولى:

كما قرأناها من قبل ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ونقف على كلمة القيامة، ويكون المعنى أنّه يوم القيامة سوف لن يفيدكم أحد لا الأرحام ولا الأولاد، ومن ثمّ نقرأ ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾.

الطريقة الثانية:

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ ونقف على كلمة ﴿أَوْلَٰدُكُمْ﴾، وعلى هذه الطريقة يكون المعنى أنّ الأرحام لا تنفع ولا الأولاد، ومن ثمّ نكمل القراءة هكذا: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾.

---

(1) سورة هود، من الآية: 46.

ففي بعض المصاحف توجد ثلاث نقط فوق كلمة ﴿أَوْلَٰدُكُمْ﴾ وتوجد أيضًا ثلاث نقط فوق ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وهذا الوقف اسمه وقف المعانقة، وهو يعني جواز الوقف بأحد الموضعين وليس في كليهما، فإذا وقفت على أوّل كلمة ﴿أَوْلَٰدُكُمْ﴾ فلا يجوز الوقوف على الكلمة الثانية ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، والعكس أيضًا، إذا أردت أن تقف على كلمة ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فلا يجوز الوقوف على كلمة ﴿أَوْلَٰدُكُمْ﴾، فإمّا أن تقف على كلمة ﴿أَوْلَٰدُكُمْ﴾ أو تقف على كلمة ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

وعليه تكون طريقة القراءة الثانية هكذا: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾. وهنا وقفنا عند ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أو نقرأها بالطريقة الأولى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾. هنا نقف ومن ثم نكمل قراءة ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي أنّ الله سبحانه وتعالى يعلم بكلّ الأمور، بما تقومون به من أعمال صغيرة فضلًا عن الكبيرة، ويعلم ما يدور في خَلَدكم وما يخطر في أذهانكم، كما ويعلم ضعفكم.

بعد أن أنهينا بيان هذه الآية، تتعرّض آيات هذه السورة القرآنية المباركة لشاهد تاريخي وتضرب لنا مثلًا عن النبيّ إبراهيم عليه السلام، ليشعر القارئ أنّ القرآن يتعرّض لمضمون كلّي وعام، وهذا ما نتركه للجلسة القادمة إن شاء الله تعالى.

الجلسة الثانية:
(٢٩/١٠/١٩٨٢ م.)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات 4 - 6 من سورة الممتحنة

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾

إبراهيم عليه السلام أسوة الموحّدين الحسنة

بعد أن بيّنا في الآيات السابقة الأصل الكلّي والأساس، وهو ضرورة تكتّل واصطفاف المؤمنين في مواجهة الكافرين، واتضح أنّه لا يحقّ للمؤمنين أن يتعاملوا مع الذين يكفرون بعقائدهم وبأسلوبهم وبطريقتهم، ويعتبرون المؤمنين أعداء لهم، ولا يبنوا علاقة محبّة ولا مودّة ولا صداقة، وذكرنا أنّ هذا الأمر يبدأ من نقطة خاصّة، بمعنى أنّ هناك قضيّة قد حصلت في زمن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وهي مسألة خاصّة في واقعة خاصّة نزلت فيها هذه الآيات، لكنّها سرعان ما تنتهي إلى بيان أصل كليّ -وقد أشير إليه في أواخر الآية الأولى، كما سوف يشار إلى هذا الأصل في الآية التالية- لكن يذكر في هذه الآية وفي الآيتين التاليتين على هذا الأصل شاهدًا تاريخيًا حيويًّا، وهذا الشاهد التاريخي هو عن النبيّ إبراهيم عليه السلام، خليل الله، النبيّ المصطفى من الله، الذي يُعبّر عمله عن الأمر الإلهي. النبيّ إبراهيم هو النبي الذي يقرّ به جميع المؤمنين وجميع أتباع الديانات السماوية وأهل الكتاب، ويرون أنّ ما يقوم به عليه السلام إنّما هو بأمر من الله تعالى ويمكن أن يكون أسوة لهم جميعًا. لذا تبيّن هذه الآيات أنّ هذا الأمر الموجّه إليكم ينبغي أن تحذوا فيه حذو إبراهيم عليه السلام، وتقوموا بما قام به إبراهيم عليه السلام.

ما أشارت إليه تلك الآية عمّا جرى مع إبراهيم عليه السلام هو أنّه بعد إعلانه عليه السلام لدعوته وإظهار اعتقاده للملأ، تجمع حوله عدد من الناس واعتقدوا به -ولا يعلم بالضبط متى حصل هذا الأمر بعد إعلان دعوة إبراهيم عليه السلام، لأنّه كما ذكرنا أنّه لا يوجد تفاصيل واضحة وجليّة في التاريخ عن حياة النبيّ إبراهيم عليه السلام ولا عن سائر

الأنبياء عليهم السلام- عندها خاطب النبي عليه السلام أعداء الله والمنكرين لوجوده تعالى، والمشركين، ولا فرق بين أن يكون الشخص منكرًا لله أو أنّه يعبد موجودًا آخر غير الله أو مع الله، حتّى يطلق عليه أنّه مشرك بالله، ففي كلا النحوين يطلق عليه أنّه مشرك، خاطبهم قائلًا: نحن لسنا منكم ولستم أصدقاءنا، ويوجد بيننا وبينكم عداوة وبغضاء وكراهية، إلى أن تؤمنوا بالله تعالى [وتصبحوا مثلنا].

وهذا أسلوب اعتمده النبيّ إبراهيم عليه السلام في مواجهة أعداء الله، وهذا أسلوب جميع أنبياء الله؛ فكلّ واحد منهم حاز ما حازه إبراهيم عليه السلام يتصرّف بالأسلوب نفسه، بمعنى أنّ كلّ نبيّ من الأنبياء اجتمع حوله جمع من الناس والتابعين واعتقدوا به وكان باستطاعتهم إعلان دعوتهم، فكان من اللازم على النبيّ وأتباعه أن يتبرّؤوا بشكل علنيّ وصريح من أولئك الذين يقفون في مواجهة النبيّ وفي مواجهة الدين. والتبرّي يعني البراءة والانفصال المطلق عنهم، واجتنابهم، والابتعاد عنهم، وتحقيق التكتّل والاصطفاف التامّ بين المؤمنين من جهة والكافرين والمشركين من جهة أخرى. لكن النبيّ إبراهيم عليه السلام عندما قال هذا الخطاب ووضع الحدود الفاصلة بين المؤمنين وبين أعدائهم، استثنى منهم شخصًا واحدًا، وهو ما عبّرت عنه الآية القرآنية بـ(الأب)، وهو يستعمل في اللغة العربية بمعانٍ عدة، فالأب يستعمل بمعنى الوالد، وبمعنى العمّ أيضًا، وبمعنى المدبّر والمشرف، فأيًّا كان المراد بالأب في هذه الآية، والده أو عمّه أو المشرف عليه، فهو الشخص الذي وعده إبراهيم عليه السلام بأن يستغفر له ربّه. لكن لا بدّ من التنبيه إلى أمر وهو أنّ هذا وعد من إبراهيم أن يستغفر له ربّه، إلا أنّه لا يملك شيئًا

للدفاع عنه أمام الله، فهو لا يطلب على نحو الإلزام من الله أن يغفر له، وإنّما هو مجرّد داعٍ لله وسائلٍ ملتمسٍ لعلّ الله يغفر له خطاياه، وهذا هو المورد الوحيد الذي وعد فيه إبراهيم أباه بالاستغفار له، وأمّا في سائر الموارد فإنّه عليه السلام لم يفرق بين أحد من الكافرين في ذلك الوقت -سواء كان أباه أم عمّه أم المشرف عليه- فإنّهم جميعًا سواء بالنسبة له، وقد وقف منهم موقفًا واضحًا وصريحًا وأعلن أنّه منحاز عنهم وفي مقابلهم وتكتّلَ مع المؤمنين بالله تعالى في مواجهة الكافرين وأعلن البراءة منهم.

وفي البداية نتعرّض لشرح مبسّط لهذه الآيات، ومن ثمّ نذكر بعض الأبحاث؛ ففي الآية الكريمة خطاب للمؤمنين حيث تقول: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾، والأسوة تعني المتابعة والاقتداء والاحتذاء، وعليه عندما نقول لكم أيّها المسلمون التابعون للنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله تبرّؤوا من الكافرين واجعلوا حدًّا فاصلًا قاطعًا بينكم وبين أعدائكم وأعداء الله، فلا تظنّوا أنّ هذا التكليف من مختصّاتكم، وإنّما كان هذا تكليفًا عبر التاريخ لكلّ من سبقكم من المؤمنين، فاقتدوا بإبراهيم ومن آمن معه فهم أسوة لكم، فإنّ الجميع في زمن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، النبي نفسه والمؤمنون بالله بل وحتّى كفّار قريش واليهود والنصارى، جميعهم كانوا ينسبون أنفسهم لإبراهيم عليه السلام، بل إنّ كفّار قريش كانوا يعتبرون أنفسهم من نسل إبراهيم عليه السلام وأتباعه... وقد نفت الآية القرآنية هذه المعاني عن إبراهيم ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ

حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1]، وتكمل الآية التالية ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]. وقد تعرّضت الآية القرآنية لهذا المثل التاريخي عن إبراهيم عليه السلام لما له عليه السلام بنظر الناس في ذلك الزمن من مقام عال وشأن رفيع.

تبرّي النبيّ إبراهيم عليه السلام من الكافرين

بماذا ينبغي أن تقتدوا بالنبيّ إبراهيم عليه السلام؟ فماذا كان يفعل؟ ﴿إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ﴾، فإنّ المؤمنين الذين كانوا مع إبراهيم عليه السلام قالوا لقومهم، لأولئك الذين ترعرعوا بينهم وعاشوا معهم وكبروا عندهم، نحن بريئون منكم، ولا يوجد أيّ شيء يربطنا بكم، وقد قطعنا أيّ علاقة كانت تربطنا بكم، وتبرّأنا منكم ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ومن تلك الأمور التي تعبدونها من دون الله، من تلك الأصنام الحجريّة والأوثان الخشبيّة وتلك الأوهام والتخيلات التي نسجتموها بأنفسكم ونحن بريئون منكم ومن ذلك كلّه. وهذا يعني أنّهم حدّدوا موقفهم جيّدًا، وهو العداوة في مقابل الكافرين، ولا يمكن لشخص أن يواجه ويحارب فكرًا أو مذهبًا ويعتبر أتباع هذا الفكر أعداء له، وفي الوقت نفسه يتّخذهم أحبّاء وأصدقاء، فإنّ هذا الأمر غير معقول، لأنّه تتجلّى محاربة فكر محدّد أو مذهب معيّن بأفضل أشكالها العملية وأبرز حالاتها المؤثّرة

(1) سورة آل عمران، الآية: 67.

(2) سورة آل عمران، الآية: 68.

عندما يواجَه أتباع ذلك الفكر أو ذلك المذهب. كما أنّ أبرز الأشكال العمليّة للدفاع عن فكر معيّن تتجلّى في الدفاع عنه عند مواجهة أعداء هذا الفكر، فلو كان شخص ما يعتقد بمذهب أو بفكر لكنّه لا يشعر بالعداوة مع أعداء مذهبه وفكره، فإنّ دفاعه عن المذهب لا يأخذ المنحى الجديّ. وهذه هي إحدى ذرائع عجز المسلمين، طبعًا الذين يدّعون الإسلام -في كلّ العالم سواء عبر التاريخ أم في أيّامنا الحاضرة- عن مواجهة أعداء الإسلام، وعن الدفاع عن دينهم وإسلامهم وفكرهم، لأنّهم على انسجام وتوافق مع أعداء الإسلام، ولأنّهم يصطفّون إلى جانب أولئك الذين يعادون هذا الدين ويخاصمونه. ولا يخفى أنّ هذه الآيات لا تقول إنّه يجب معاداة كلّ من لا يؤمن بدينكم، وإنّه يجب معاداة كلّ إنسان غير مسلم، كلا، لأنّه ما أكثر غير المسلمين الذين ينبغي محبّتهم، وستصرّح الآيات اللاحقة من هذه السورة بهذا المعنى، ونحن لا ندّعي أنّه ينبغي معاداة كلّ من لا يعتنق الإسلام، وإنّما نقول ينبغي معاداة ومواجهة كلّ من يعادي الإسلام ويعادي ديننا ويضمر له السوء، ولا يصحّ غير هذا الموقف، وبغير هذا لا يكون دفاعنا عن الإسلام جدّيًّا، فلا يصحّ أن ندافع عن ديننا وفي الوقت نفسه لا نتّخذ موقفًا حازمًا في مواجهة أعداء هذا الدين، فإنّ هذا التصرّف أقرب ما يكون إلى المزاح والهزل. وبالنسبة لأولئك الذين لا يعترفون بديننا لكنّهم في الوقت نفسه لا يكنّون العداوة له ولا يضمرون له السوء فإنّنا بكلّ سهولة نستطيع أن نحبّهم، وهذا ما ستصرّح به الآيات اللاحقة. وبناء عليه، لقد قال إبراهيم عليه السلام هذه الكلمات واتخذ هذا الموقف، ومن الطبيعي جدًّا أنّ كلامه عليه السلام مصحوب بالعمل، فإذا قال فعل،

ومن ثمّ قال: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾، أي إنّنا منكرون لكم، ولا نعترف بكم ولا بأفكاركم، وهذا ما عبّر عنه بشكل صريح في الآية: ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾، فإنّنا رغم كرهنا لكم، والتكتّل في مواجهتكم، لا نعترف بكم، وقد أصبحت عداوتنا لكم واضحة وجليّة. وهذا منه عليه السلام إعلان صريح للعداوة والحرب معهم، وهذا ما يفهم من كلمة ﴿وَبَدَا﴾ أي ظهرت العداوة وأصبحت واضحةً وجليّةً، وكذلك البغضاء والكراهية. وأما قوله ﴿أَبَدًا﴾، فهو يعني النفي المطلق وأنّه لا مجال للصلح والتفاهم معهم. نعم هناك استثناء واحد وهو أنّ لهذه العداوة والبغضاء نهاية واحدة واستثناءً فريدًا وهو ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾، وتقرّوا وتعترفوا بالله الواحد الأحد، عندها نغضّ عن معاداتكم وتنتهي هذه البغضاء بيننا.

الفكر الالتقاطي خطأٌ بعض التيّارات الإسلاميّة

التفتوا إلى مجتمعنا، ففي ذلك الوقت وبعد دعايات العدوّ المكثّفة، كانت هناك مجموعة من الشباب يريدون العودة إلى كنف الدين، لكن أحد الانحرافات التي حصلت هو عدم مراعاة هذا الأصل الكلّيّ، فقد وضعوا لسنوات طويلة -قبل أربعين أو خمسين سنة- برامج في هذا البلد، طبعًا لم تكن خاصّة بهذا البلد، وإنّما وضعوا برامج لكلّ العالم الإسلاميّ تهدف لتخلّي المسلمين عن إيمانهم، لأنّ الأعداء العالميّين للإسلام أدركوا جيّدًا أنّ أهمّ عنصر وأهمّ عامل يوحّد المسلمين فيما بينهم ويجعلهم يقفون متّحدين في مواجهة أعداء الإسلام هو الإيمان. نعم، هذا ما أدركه العدوّ، لذلك ظنّوا أنّ أفضل حلّ لهم هو أن ينزعوا الإيمان من قلوب

المسلمين، ولا سيّما قلوب الشباب، وقلوب جميع طبقات المجتمع الإسلاميّ، فبدأوا بوضع برامج عامّة وطويلة الأمد. كان ذلك في إيران وفي كلّ المنطقة التي كانت تحت سيطرة الدولة العثمانية آنذاك، وفي كلّ العالم الإسلاميّ على امتداده. لقد كانت خطّتهم واسعة وناجحة، وقد رأينا في زماننا كيف أصبح الحال، نتيجة تلقين العدوّ ودعاياته، ببعض من حصل على درجة بسيطة من العلم وحاز بعض المعلومات البسيطة، أنّه كان يعادي الدين ويخالفه، لاعتقاده أنّ لازم علمه ومعلوماته مخالفة الدين ومعاداته. وقد ذكرتُ مرّة أنّ التنوّر الفكريّ ولد في بلدنا ممزوجًا بالتحرّر من الدينيّة (اللادينيّة)، بل كان التنوّر في بلدنا يعني اللادينيّة، وكان التعلّم يلازم اللادينيّة، وكان على كلّ من يتعلّم ويدرس أن يترك الدين. نعم، لقد هيأوا لهذا الظرف في مجتمعنا، وكان الحال على هذا النحو لمدّة أربعين سنة -أو أقلّ أو أكثر قليلًا من ذلك- والجيل الذي كان متنوّرًا في ذلك الوقت، أو حصل على بعض الدرجات العلميّة -وما زال هذا الأمر موجودًا- لا يعتقد بالدين، ومن ثمّ سعى مجموعة من الفلاسفة والمفكّرين الإسلاميين الحقيقيّين والمتديّنين وعلماء الدين الصادقين في هذا البلد، وجاهدوا بعقد الدروس والأبحاث، في شتّى الأماكن، فبدأوا من الأماكن الصغيرة والطرقات الفرعيّة وأسّسوا حوزات علمية، واستطاعوا نتيجة هذه الجهود المضنية التي بذلوها أن يضعوا مقدارًا من أسس أصول الفكر الدينيّ بين الشباب والمتنوّرين فكريًّا، ليعود الدين مجدّدًا ورويدًا رويدًا وبالتدريج إلى جيل الشباب. ونحن نشاهد هذه النهضة من سنة 34 و35 وما بعدهما ونلحظ العودة الفكريّة والإيمانيّة للدين بنحو تدريجي

بين المتنوّرين وبين المتعلّمين ولا سيّما بين الشباب. ولا يخفى أنّ هذه النهضة قد تألّقت أكثر فيما بعد. وعندما انطلقت ثورتنا الإسلاميّة العظيمة سنة 1341 ه. ش. قويت أيضًا حركة التوجّه نحو الدين والعودة إليه واشتدّت، بمعنى أنّ الشباب والأشخاص الذين يرفضون الدين لعدم ثقتهم بعلماء الدين -فقد عملوا سابقًا على تنفير الناس من علماء الدين وزعزعة ثقتهم بهم لكي يُبعدوهم بذلك عن الدين- وجدوا أنّ الأمر بالعكس، فالعلماء يتصدّون في وسط المعركة، يواجهون ويحاربون، ورأوا أنّ كلّ التُهم التي كانت توجّه ضدّ علماء الدين من قبَل النظام البهلوي وعملائه وصنائعه وغيرهم، كتهمة أنّ علماء الدين على تناغم مع الاستعمار، وأنّهم عملاء للإنكليز، وغير ذلك من التُهم، رأوا أنّ كلّ ذلك مجرّد تُهم أُلصقت بهم، وأنّ الأمر بالعكس تمامًا؛ فعلماء الدين يضحّون في سبيل الإسلام، كما حصل في مدرسة الفيضيّة وغير ذلك الكثير. فبدأت حركة التديّن بالتدريج تقوى وتشتدّ وتتسارع، وأصبح الشباب أكثر تعلّقًا بالدين، وقويت العلاقة بين الحوزات العلمية والجامعات، وكثرت اللقاءات فيما بينها، ممّا يعني انطلاقة حركة التديّن وتعزيز الاتجاه الدينيّ.

في ذلك الوقت الذي اشتدّ فيه الانجذاب إلى الدين وقوي بين الناس -المتعلّمين- ووصل إلى قمّته بشكل تدريجيّ بين المتنوّرين وبين الشباب وفي الجامعات، وُجدت حركة أخرى أدّت إلى تراجع بعض الشباب عن الدين لأنّه لم تتمّ مراعاة هذا الأصل الإلهيّ، فما هي هذه الحركة؟

إنّها حركة الفكر الالتقاطيّ، وهي عبارة عن أولئك الأشخاص

الذين يعتقدون بالإسلام ويحبّون أن يطبّقوا التعاليم الإسلامية وأن يفهموا الأمور فهمًا إسلاميًّا، إلا أنّهم لم يواجهوا أعداء الإسلام ولا الاتجاهات المعادية علنًا للإسلام. وأنتم تعلمون بظهور الاتجاه الماركسي في العالم، الذي يعتبر الدين مخدّرًا للشعوب، وقد وضع تحييد الدين على رأس قائمة كلّ تعاليمه ومعتقداته وحركاته الاجتماعيّة، مفسّرًا ذلك بأنّ «الدين أفيون الشعوب». كانوا يرون الشعوب المتديّنة هي التي يسيطر عليها الاستعمار، فما هو السرّ في تسلّط حكّام العالم الماديّ -الامبريالية وغيرها- على الشعوب؟ السرّ عندهم هو أنّ الشعوب متديّنة، وتعتنق الدين، ولو لم تكن الشعوب متديّنة لما تسلّط عليها الاستعمار بهذه البساطة. هذا التفكير يعتبر أصلًا أساسًا في الاتجاه الماركسيّ، وهؤلاء الأشخاص -أصحاب الفكر الالتقاطيّ في إيران- رغم اعتناقهم واعتقادهم بالدين لكنّهم يتناغمون مع الاتجاه الماركسيّ، بينما يقول تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾، وهذا يعني أنّه لا ينبغي بناء علاقة مع أعداء الله ومع الاتجاهات التي تخالف الله ولا تعتقد به، ومع أولئك الأشخاص الذين يبنون أفكارهم ومعتقداتهم على أصل أساس وهو أنّه لا بدّ من زوال الدين وتحييده. وبملاحظة كتبهم تجدون أنّهم ينقلون جملة عن ماركس وثانية عن ستالين وثالثة عن لينين ورابعة عن ماو وخامسة عن شخصية ماركسيّة معروفة، وهكذا ينقلون عنهم بشكل منظّم، لكنّهم لم يراعوا هذا الأصل القرآنيّ وهو ضرورة الفصل بين المؤمنين وبين أعداء الله وأعداء الإسلام، وضرورة التكتّل في مواجهة أعداء الدين، فما كانت نتيجة ذلك؟

نعم، لقد كانت النتيجة أن أصبح الدين في ذلك الوقت -وعلى خلاف ما يأمل الماركسيّون- وسيلةً استطاع به هذا المجتمع وهذا الشعب وببركة المتديّنين أن يقهر أكبر قوى الاستعمار العالميّ -أي أمريكا- ويشكّل حكومته، فتشكّلت الجمهورية الإسلاميّة التي لا نظير ولا سابقة لها في العالم، عِلمًا أنّه لم يكن مع هذا الشعب أيّ قوّة من القوى العالمية الكبرى، وفي خضمّ هذا العشق الإلهيّ وهذا الحراك الشعبيّ وقف الالتقاطيّون إلى جانب أمريكا في مواجهة هذه الأمّة وحاربوها، [لكن دون جدوى]. وهذا أمر اجتماعيّ حقيقيّ آخر نشاهده بكلّ وضوح أمام أعيننا، وعدم انتباههم إلى هذا الأصل القرآنيّ من ضرورة تكتّل المؤمنين في مواجهة أعداء الإيمان، والمسلمين في مواجهة أعداء الإسلام، أدّى بهم للوقوف في مواجهة أمّتهم وشعبهم، وأدّى بهم لمواجهة الإسلام ولمواجهة الجمهوريّة الإسلاميّة. لذلك كان التغاضي عن هذا الأصل القرآنيّ خطيرًا جدًّا.

ثلاثة أصول في كلام النبيّ إبراهيم عليه السلام:

لقد ذكر القرآن الكريم أصلًا في كلام إبراهيم عليه السلام يحتوي على ثلاثة أمور بيّنها عليه السلام في مواجهته لأولئك الكفّار المعاصرين له، وهم أعداء الإيمان وأعداء الإسلام.

الأوّل: هو البراءة:

فقد قال: نحن برآء منكم، بمعنى أنّه لا يوجد في قلبنا مقدار حبّة خردل من المحبّة تجاهكم، ولا تربطنا بكم أيّة علاقة. هذه هي البراءة. فالبراءة أمر قلبيّ، تعني أنّنا ننفصل عنكم قلبًا وبشكل كليّ،

ولا توجد أيّة علاقة ولا أيّة رابطة بيننا وبينكم، فنحن مؤمنون وأنتم أعداء الإيمان.

الثاني: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾:

يعني أنّنا لا نقبل بكم، فنحن بمنطق العقل والفكر لا نقبلكم، وهذه البراءة التي نعلنها غير ناشئة عن العواطف والمشاعر -ففي بعض الأحيان قد لا نتقبّل شخصًا معيّنًا ونرفضه، لكن يكون ذلك ناتجًا عن المشاعر والأحاسيس والعواطف- ولكن في كلام إبراهيم عليه السلام لا مجال لهذه المشاعر وإنّما كلامه عن الكفر بمعنى أنّه لا يقبل بالكافرين فكرًا ولا منطقًا.

الثالث: هو العداوة الواضحة، وهي تعني البينونة العمليّة.

وعليه، هذه ثلاثة أمور تظهر في كلام النبيّ إبراهيم عليه السلام: البينونة القلبيّة، والبينونة الفكريّة، والبينونة العمليّة. إذًا فنحن نختلف عنكم قلبًا وفكرًا وعملًا، وهذه هي الحالة التي كانت تتحلّى بها جميع المجموعات التي كانت تناضل من أجل الإسلام، وكانوا يعملون من أجل الإسلام. ولو لاحظتم الذين يناضلون في العالم، في كلّ مكان، ويعملون أو يريدون العمل من أجل الإسلام، ولكنّهم لا يتحلّون بهذا الأصل، فاعلموا أنّ هذا النضال غير واقعيّ، وإذا كان واقعيًّا فهو لن يوصل إلى نتيجة، بينما المواجهة الصحيحة والواقعية والنضال الحقيقيّ لا بدّ من أن يتحلّى بهذا الأصل ويحتوي على هذه الأمور الثلاثة.

لقد ورد في ترجمة يحيى ابن أمّ الطويل، هذه الشخصيّة الفريدة

في مجتمعها، فقد كان رجلًا بكلّ ما للكلمة من معنى، وكان من أنصار الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام، كما كان معروفًا في مجتمعه بالفتوّة والبسالة والحكمة، ولم يكن من أولئك الأشخاص الّذين يحنون رؤوسهم ويتحرّكون بشكل هادئ، فلا أحد يعرف بهم. وإذا أردنا أن نعبّر عنه تعبيرًا عاديًّا وعاميًّا واضحًا، فقد كان رجلًا شجاعًا، شجاعًا في سلوكه، شجاعًا في إيمانه، ونحن نمتلك في مجتمعنا الكثير من هؤلاء الأشخاص الشجعان مسلكيًا، ومن يرِد أن يطّلع بشكل أكثر على أحوال هذا الرجل فليراجع كتاب رجال الكشيّ، حيث نقل عنه الأشياء الكثيرة والجميلة، ونقل قصصًا وروايات حقيقيّة جميلة ولطيفة حصلت مع هذا الرجل العظيم الذي ختم حياته بالشهادة، فقد قطعوا يديه ورجليه واستشهد جرّاء ذلك. هذا الرجل كان يقف في الكوفة بين أتباع بني أميّة، وكان يقف بين الأشخاص الذين يتّبعون مروان وعبد الملك بن مروان ويكفرون بالله المتعال عمليًا -هؤلاء الأشخاص وإن كانوا بالظاهر مسلمين لكنّهم عمليًّا يعبدون غير الله وكانوا غير مسلمين- وكان يصرخ بصوت مرتفع: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ﴾، وهذا منه يعني التكتّل وإظهار العداوة لهؤلاء الأشخاص، وهو الكفر بهم في مواجهة بينه وبينهم، أحد أطراف هذه المواجهة لا يُعدّ كافرًا بشكل واضح وصريح، فإنّ أطراف المواجهة في زمن الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام أشخاص لم يجاهروا بكفرهم، فعبد الملك بن مروان كان يدّعي الإسلام مثل الكثير من المسؤولين في الدول الإسلامية، هؤلاء الفراعنة في بعض الدول الإسلاميّة الذين يدّعون الإسلام، هكذا كان في ذلك الوقت، كانوا يدّعون الإسلام أيضًا. هذا الرجل

العظيم كان يقف أمام أولئك الأشخاص الذين يتّبعون الفراعنة، ويصرخ ويقول: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾، فقد أصبحت العداوة واضحة بيننا وبينكم، نعم، هكذا كان يتصرّف.

نعم، لقد كان النبيّ إبراهيم عليه السلام والذين معه يقومون بهذا الأمر أيضًا، فأوّلًا البراءة، ثمّ الكفر، ومن ثمّ العداوة والبغضاء.

السبب الذي دعا النبيّ إبراهيم عليه السلام للاستغفار لعمّه

يقول الله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾. لقد كان لهذه البراءة وهذا الكفر والعداوة والبينونة بينهما استثناء واحد، وهو قول إبراهيم عليه السلام لأبيه -والمراد بالأب هنا إمّا والده أو عمّه أو المربّي له، وسوف يأتي التفصيل منّا إن شاء الله، لأنّ كلمة الأب تستعمل بأحد هذه المعاني الثلاثة أو أكثر من ذلك- فقد وعد إبراهيم عليه السلام أباه بقوله: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾، لكن بعد هذا الكلام قال: ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾[1]، وهذا يعني أنّ إبراهيم عليه السلام لم يطلب من الله عزّ وجلّ على نحو الإلزام، ولم يقل له سأشفع لك عند الله أو سأزكيك عند الله، ولم يقل يا الله هذا الشخص أبي فلا بدّ من أن تستجيب لي وتغفر له! كلا، وإنّما يدعو الله بمنتهى الابتهال والتضرّع وبغاية التواضع له سبحانه وتعالى. وهنا لا بدّ من الإشارة إلى نكتة وهي عبارة عن سؤال: لماذا إبراهيم عليه السلام كان يدعُو لأبيه؟ فما هي خصوصية هذا الأب؟ هل إنّ لون دم أبيه أكثر حمرة من لون دم الآخرين؟ وما الذي يميّزه عن

(1) سورة الممتحنة، من الآية: 4.

غيره؟ لماذا إبراهيم عليه السلام لم يستغفر للآخرين؟

وجواب هذا السؤال موجود في آية أخرى وموضع آخر من القرآن الكريم وهو ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾[1]. فما هو هذا الوعد؟ الوعد هو أن يصبح مؤمنًا، بمعنى أنّ أبا إبراهيم عليه السلام قال له سوف نرى لعلّي أصبح مؤمنًا، أو لعلّه لأجل أنّ أبا إبراهيم عليه السلام كان يحبّ إبراهيم وكان يعلم أنّ إبراهيم يسير في طريق غير طريقه، أو لأجل أنّه كان يريد أن يتغلّب على إبراهيم وأن يبعده عن عداوته بهذه الطريقة، أو أنّه واقعًا كان في ذهن أبي إبراهيم أنّه سوف نرى وأفكّر في الأمر لعلّي أصبح مؤمنًا. لكن لا يخفى أنّ إبراهيم عليه السلام، هذا العبد الإلهيّ الصالح، يحبّ عباد الله سبحانه وتعالى، وأنّ طبعه الأوليّ حبّ النّاس جميعًا، وفي الوقت نفسه يحبّ أن يؤمنوا جميعًا بالله سبحانه وتعالى، ولا يكونوا أعداء له تعالى، ولا يكونوا كفّارًا، والكفر بالله تعالى أمرٌ عرضيّ، فإنّ الأصل الأوّل عند إبراهيم عليه السلام هو أنّ هؤلاء جميعهم بشر، فيا حبّذا أن يكونوا جميعًا مؤمنين بالله سبحانه وتعالى وعبادًا له. وحيث رأى إبراهيم أنّ هذا الأب الذي يُعتبر مِن بين الكفّار قد أعطاه وعدًا لذلك قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾[2]، ومعنى اغفر له يعني اجعل ذنوبه في معرض مغفرتك ووفّقه لكي يصبح مؤمنًا لأنّه كان قد وعد بذلك.

ومن ثمّ تكمل الآية: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾[3].

(1) سورة التوبة، من الآية: 114.

(2) سورة الشعراء، الآية: 86.

(3) سورة التوبة، من الآية: 114.

وهذا يعني أنّه عندما اتّضح أن أبا إبراهيم لن يؤمن بالله أبدًا تبرأ إبراهيم منه أيضًا، وأعلن العداوة معه.

وهنا لا بدّ من الالتفات لمسألة مهمّة وهي أنّ النبيّ إبراهيم عليه السلام لم يكن يميّز أباه عن غيره ولم يزكّه عند الله، أو يشفع له عنده، لأنّه أعطاه وعدًا بأن يكون مؤمنًا لذلك إبراهيم دعا له واستغفر، وعندما أصبح واضحًا أنّه لم يؤمن اعتبره إبراهيم كبقيّة الكافرين، وكما يقول المثل: «أوّل ثوب القماش كآخره من نوع واحد»، لذلك تبرّأ منه وابتعد عنه وجعل حدًّا فاصلًا بينه وبينه. وهذا جواب سؤالنا السابق.

المقصود من (الأب) في الآية الكريمة

وهنا أطرح سؤالًا آخر ثمّ أتعرّض للآية الكريمة، والسؤال هو: أنّه في عقائدنا الإسلامية ومن جملة معتقداتنا أنّ الأنبياء يتولّدون من آباء وأمّهات مؤمنين، وهذا هو اعتقادنا، ونقول أيضًا إنّه لا يمكن أن يكون أبو النبيّ أو أبو المعصوم كافرًا أو مشركًا، وعليه كيف ينسجم هنا أنّ أبا إبراهيم عليه السلام كان كافرًا أو مشركًا، ثمّ في آية أخرى يتبرّأ منه؟

الجواب: إنّ التعبير بأب في هذه الآية ليس المراد منه قطعًا الوالد الحقيقي، لأنّ الأب في اللغة العربية يُستعمل بمعنى الوالد الحقيقيّ ويستعمل بمعنى العمّ ويستعمل بمعنى المشرف أو المربّي. ونحن بقرينة الآيات الأخرى من القرآن الكريم نفهم أنّ هذا الشخص الذي ذُكر أو أُشير إليه ليس هو والد إبراهيم الحقيقيّ، فهو إمّا عمّه أو زوج أمّه أو المشرف عليه، لكنّه ليس والده قطعًا. وسوف

أتعرّض لقرينة من القرآن الكريم إذا اتضحت هذه سوف يكون هناك فهم جديد لهذه المسألة.

والنكتة هي: أنّ إبراهيم قد استغفر لهذا الشخص في هذا المورد وفي موارد عدّة أخرى من القرآن الكريم، وفي كلّ هذه الموارد تمّ التعبير بكلمة (أب)، وفي سورة مريم ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾[1] ورد التعبير بهذا النحو، وفي الآية السابقة التي قرأناها ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ ورد التعبير بأب، وفي الآية المتعلّقة بسورة الممتحنة أيضًا ورد التعبير بكلمة (أب). ولعلّ هناك أربعة مواضع أو أكثر في القرآن الكريم تتعرّض لمسألة استغفار إبراهيم عليه السلام لهذا الشخص، وقد ورد التعبير فيها بكلمة (أب)، لكن نلاحظ بعد أن طلب النبيّ إبراهيم عليه السلام من هذا الشخص أن يؤمن بالله، إلا أنّ هذا الشخص لم يؤمن، عندها أعرض النبيّ عليه السلام عنه وتبرّأ منه وانتهى الأمر، فإلى أي زمن تعود هذه القضية؟ تعود إلى ذلك الوقت الذي كان فيه عليه السلام في بداية الدعوة، وكان يلتفّ حوله مجموعة صغيرة تؤمن به، وما زالوا في بداية إيمانهم، وقد ذُكر هذا الشخص باسم (آزر) كما في الآية ﴿۞وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾[2]. نعم لقد كان إبراهيم عليه السلام شابًا يافعًا، يعني في بداية شبابه، ولعلّه مرّ عليه سنوات عدّة وكان هذا (الأب) على هذه الحال، وإبراهيم عليه السلام دعا له بهذه الكيفيّة التي ذكرت. لكن هناك موضع آخر في القرآن الكريم يتحدّث عن النبي إبراهيم عليه السلام عندما كان كبيرًا، في ذلك الوقت

(1) سورة مريم، من الآية: 47.

(2) سورة الأنعام، من الآية: 74.

عندما كان يبني فيه الكعبة مع ابنه إسماعيل ورد التعبير بـ(الوالد). كلنا نعلم أنّ الله وهب إسماعيل لإبراهيم عليه السلام على الكبر، ففي الآية القرآنيّة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾[1]، فقد كان يبلغ من العمر ثمانين سنة أو تسعين أو أكثر عندما أعطاه الله سبحانه وتعالى ووهب له إسماعيل. في ذلك الوقت الذي كان فيه مع إسماعيل يبني الكعبة كان إبراهيم مسنًّا ومضى عليه عليه السلام زمن طويل، وفي ذلك الوقت بنى الكعبة. ومن جملة دعاء إبراهيم عليه السلام ربّه قال: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾[2]، فهنا ورد التعبير في هذه الآية بالوالد، فلو كان هذا الشخص الوالد هو ذلك الشخص نفسه الذي عبّر عنه بالأب لكان من الضروري أن لا يدعو له ولا يستغفر له، لأنّه تبرّأ منه، فلمّا تبيّن له أنّه عدو لله تبرأ منه، فلا معنى لأن يتبرّأ منه ثمّ بعد مرور الزمن وفي سنّ السبعين أو الثمانين أو المائة يعود إبراهيم مجدّدًا ليدعو له بالمغفرة، وهذا يعني أنّ الذي دعا له إبراهيم في حال الكبر غير ذلك الشخص الذي استغفر له وهو شابّ ودعاه للإيمان بالله تعالى؛ فالآية عندما يرد فيها كلمة والد، فالوالد تعني الأب لحقيقيّ، ولا يعبّر عن زوج الأمّ أو عن العمّ أو عن المربّي بالوالد. نعم كلمة (الأب) يمكن أن تستعمل في الأب الحقيقيّ وغيره، لكن كلمة الوالد لا تستعمل في كلمة الأب بمعنى العمّ أو زوج الأمّ. إنّ إبراهيم عليه السلام وبعد مرور سبعين سنة أو ثمانين سنة على هذه القضيّة دعا مجدّدًا لوالده. من هذا نفهم أنّ إبراهيم عندما دعا لهذا الشخص فهو غير ذاك

(1) سورة إبراهيم، من الآية: 39.

(2) سورة إبراهيم، من الآية: 41.

الشخص الذي دعاه للإيمان، فقد أدرك إبراهيم أنّه لن يصبح إنسانًا ولن يصبح مؤمنًا ولذلك تبرّأ منه وأعلن العداوة والبغضاء بينه وبينه.

إذًا، هذا الشخص الذي لم يصبح مؤمنًا ليس والده الحقيقيّ والواقعيّ قطعًا، وهو أبوه بمعنى عمّه أو المربّي والمدبّر له والمشرف عليه، أو هو زوج أمّه. وعليه نحن بهذه القرينة نفهم من القرآن الكريم عندما يعبّر ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ أو ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ ومن هذا القبيل من التعابير وفي كلّ مورد يرد فيه كلمة أب فليس المراد من كلمة أب هو الأب الواقعيّ والحقيقيّ.

إذًا، الأب الواقعيّ للنبيّ إبراهيم عليه السلام ليس ذلك الشخص الذي وعده بالإيمان ولم يؤمن وليس هو ذاك الشخص الذي تبرّأ منه إبراهيم عليه السلام، فهذا الأب هو زوج أمّه مثلًا، توفي والده الحقيقيّ ومن ثمّ تزوّجت أمّه من ذلك الشخص، فيعتبر بمقام الأب، فهو الأب غير الحقيقيّ، الأب المجازيّ أو الأب البدليّ أو العمّ أو المدبّر أو غيرها من هذه التعابير، المهمّ أنّه ليس الوالد الحقيقيّ لإبراهيم عليه السلام.

التوكّل على الله في المواجهة مع الكافرين

بعد أن أطلق إبراهيم عليه السلام والمؤمنون معه هذا الكلام في وجه الكافرين دعوا الله: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾. وهنا لا بدّ من الإشارة إلى هذه المسألة وهي: إذا كانت العداوة مع الأعداء تؤدّي إلى متاعب كثيرة وتؤدّي إلى مشاكل جمّة، فهي في الوقت نفسه تُكلّل بالهدوء والطمأنينة وتُقدّم الراحة للإنسان المعادي للأعداء،

حتّى لو كان العدوّ في نهاية المطاف سوف يؤذي جدًّا هذا الإنسان المؤمن، إلا أنّ هذا الإنسان سوف يجد الراحة والطمأنينة. إنّ أولئك الأشخاص في عهد النظام الطاغوتيّ الذين كانوا يواجهون العدوّ ويواجهون النظام كانت تنتابهم آلام كثيرة ومتاعب جمّة، فمنهم من سُجن ومنهم من نُفي، وكان يحلّ بهم ألف شكل وشكل من أنواع الآلام وأشكال المتاعب، وفي أثناء الثورة التي قمنا بها -إمّا قبلها بقليل أو بعدها بقليل- كان هناك ثورات أخرى لبعض الشعوب، إلا أنّهم لم يعانوا من تلك الآلام والمتاعب التي كنّا نتحمّلها نحن، لماذا؟

لأنّهم كانوا مرتبطين بجهة، كانوا يرتبطون بإحدى القوى العظمى، لذلك كانوا مرتاحين، فهم إمّا كانوا مرتبطين بروسيا أو يرتبطون بأميركا، حتّى من كان يرتبط بروسيا كان مرتاحًا، لماذا؟ لأن هاتين القوتين العظيمتين كانتا تتعاملان مع بعضهما بعضًا، فالشخص الذي ينضوي تحت جناح هذه القوّة العظمى لم تكن لتؤذيه وتتطاول عليه الأخرى بشكلٍ علنيٍ ولو بمقدار نظرة، فلو نظرت إليه هذه النظرة فإنّ القوّة العظمى الأولى التي ينضوي تحتها سوف تسانده وتساعده، ولو حاصرته القوّة الثانية اقتصاديًا فإنّ القوى الأولى سوف تقدّم له سيلًا عارمًا من الخيرات والسلاح وتنهال عليه جميع الأشياء من كلّ حدب وصوب، وكذلك الأمر بالنسبة لمن يرتبط بالقوّة العظمى الثانية، فإن القوّة العظمى الأولى لن تؤذيه وتنظر إليه بطرف عينها أيضًا. لاحظوا معي ماذا يوجد في العالم اليوم. ما هي أخبار هذا العالم؟ هناك دول ترتبط بجهة محدّدة فهي تعيش مرتاحة، وهناك دول في العالم تقف مستقلّة على أقدامها

لأنّها قوية ومستقلّة -وعدد هذا النوع من الدول في العالم قليل جدًّا- وهناك دول لا بدّ لها في نهاية المطاف من أن تحني رأسها وترتبط بالقوى العظمى. طبعًا إنّ الارتباط بهذه القوى العظمى على أنواع وأقسام، فمنها ما يرتبط بشكل كامل ومطلق وتبعيّته لها مائة بالمائة، ومنها ما تكون تبعيّته بنحو أقلّ، ومنها ما تربطه بالقوى العظمى علاقات وديّة فحسب. أمّا الذين يعادون أعداء الله سبحانه وتعالى، ويقفون في مواجهتهم، وإذا قالوا للقوّة العظمى الأولى كلامًا رافضًا ومخالفًا، فإنّهم أيضًا يقولون للقوّة الثانية كلامًا رافضًا ومخالفًا، وإذا تبرّأوا من هذه فإنّهم حتمًا يتبرّؤون من تلك أيضًا، وإذا فرّوا من تحت جناح القوّة الأولى فهم لا يلجؤون إلى كنف جناح القوّة الثانية. إنّ هذا النوع الأخير من الدول وهذا النوع من الحكومات وهذا الصنف من المجتمعات يواجه المتاعب والصعاب الكثيرة. وطبعًا نحن نفتخر بأنّه لا يوجد في العالم غير مجتمعنا وحكومتنا من هذا القبيل.

ماذا ينبغي أن نفعل في مقابل هذه المتاعب والآلام؟ وإذا وقف الإنسان في مقابل العدوّ وجهًا لوجه وشعر بالانزعاج، فماذا عليه أن يفعل؟ ولمن يشكو آلامه ومتاعبه؟ وممّن يستمدّ العون؟ فهل هناك مكان نلجأ إليه؟ منذ مدّة طويلة ونحن وحدنا في هذا الصراع، فهل فكّرنا وقلنا: «نحن عقلاء، لنثُبْ إلى رشدنا، تعالوا في نهاية المطاف لنضع أيدينا بيد إحدى هذه القوى العظمى ونرتبط بها ونقيم معها علاقة صداقة. فإلى متى نبقى نتحمّل هذه الصعوبات المستمرّة؟». هذا يعني أنّنا توكّلنا على غير الله. كلا، إنّ إبراهيم عليه السلام يعلّمنا في دعائه هذا، أنّنا إذا وقفنا في مواجهة

العدوّ وواجهتنا الصعوبات والآلام، وحوصرنا وصعب الأمر علينا، فلا ينبغي أن نفكّر أبدًا باللجوء إلى الأعداء -أو نضع أيدينا بيد بعض من الأعداء الآخرين- كلا، ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾، والتوكّل يعني إلجاء الأمر إليه تعالى. إلهنا، نحن قد علّقنا كلّ الأمور عليك أنت، لا أنّه لا نفعل شيئًا ونتّكل عليك فقط ونذهب وننام، كلا، نحن قد حاربنا، ووقفنا في وسط المعركة، وأنت ترى ذلك، وما زلنا في حالة بناء، وأنت يا الله ترى ماذا يفعل شبابنا في جهاد البناء، وترى حكومتنا كيف تعمل ليل نهار، وترى شعبنا في كلّ مكان ينبغي أن يكون فيه، وعلى أفضل وجه وأكثر ممّا نتوقّع، وترى شبابنا يبذلون الدماء، وآباءنا وأمّهاتنا يقدّمون الأبناء، وكلّ شخص يستطيع أن يقوم بعملٍ ما فهو يقوم به، وفي النهاية قد علّقنا بك يا الله كلّ هذه الأعمال، فنحن لا نطلب عونًا من أحد، ولا نضع يدنا بيد أحد غيرك يا الله، ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾، وهذا يعتبر درسًا عظيمًا، ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾، أي رجعنا إليك، فعند حصول أيّ مشكلة لنا فإنّنا نلجأ إليك، تمامًا كالطفل الذي ينزعج من شيء ويتأذّى منه، فإلى أين يذهب؟ يذهب إلى حضن أبيه أو أمّه لأنّ حضن أبيه أو أمّه أحنّ عليه من أيّ أحد وأرأف به من أيّ أحد، ونحن كذلك الأمر، نرى أنّ الله سبحانه وتعالى هو أرحم الراحمين، وأرحم من الجميع، ونعتقد أنّ الله سبحانه وتعالى يتعهّد أمورنا، وإليه ترجع الأمور ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[1].

إنّ الأمور جميعها ترجع إلى الله في آليتها ومسارها. إنّ الآخرين

(1) سورة الممتحنة، من الآية: 4.

لم يكتشفوا هذه الحقيقة وأنّ الأشياء كلّها ترجع إلى الله تعالى، حتى أولئك الذين لا يتوكلون على الله ولا يلجؤون إليه، أعمالهم ترجع في النهاية إلى الله سبحانه، ونحن قد اكتشفنا هذا الأمر وهذه الحقيقة، لذلك أتينا إليه بأنفسنا.

الطلب من الله الأمانَ من العدوّ:

يقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، فإذا وقعنا بمشكلة فإنّنا نطلب من الله سبحانه وتعالى أن يرفع ذلك عنّا، فلا يجعلنا فتنة للكافرين، ماذا تعني الفتنة؟ الفتنة هي وسيلة الامتحان، فلا تجعلنا وسيلة اختبار دنيويّ للكفّار، وماذا يعني هذا؟ يعني لا تجعلنا عرضةً لعذاب الكفار وأن يشنّ الكفّار هجماتهم علينا ويسيطروا علينا ويوقعوا بنا الآلام والعذاب ويمتحنوا بذلك أمامك، لأنّ الكفّار كلّما ضغطوا على المؤمنين فإنّ ذلك امتحان من الله تعالى لهم، فهو سبحانه يمتحنهم، ليظهر فسادهم وخبثهم وسوء سريرتهم وسواد قلوبهم أكثر ويتّضح ويخرج من مرحلة القوّة إلى مرحلة الفعل، فلا تجعلنا وسيلة لخروج هذا السوء الكامن وهذا الأذى من هذه القلوب السوداء ليظهر كلّ سوئهم وأذاهم فينا وفي حقّنا.

الاستغفار من الزلّات

تقول الآية: ﴿وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا﴾. وهذه الآية تعني أنّه لو صدر عنا خطأ أو زلّة أثناء جريان هذه الأحداث في مواجهة الأعداء وفي تحمّل الصّعاب، لو صدرت زلّة لسانيّة أو عمليّة أو تقصير ما عنّا -فإنّنا بشر

الجلسة الثالثة:
(١٩٨٢/١١/٠٥ م.)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات: 7 - 10 من سورة الممتحنة

﴿۞عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ

أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۖ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]

مواساة الله سبحانه وتعالى المؤمنين المهاجرين

لقد ذُكرت هذه الآية بعد مرور ثلاث آيات من السورة، تلك الآيات التي كانت تتحدّث عن قطع العلاقات مع الكافرين وأعداء الله والمؤمنين. وقد تقدّم شرح تلك الآيات، وذكرنا أنّ تكليف المسلمين أن يقطعوا أيّة علاقة محبّة وصداقة مع أعداء الله وأعداء المؤمنين، وبقيت مسألة مهمّة، وهي تلك العلاقة العاطفيّة بين المسلمين الذين هاجروا إلى المدينة وبين أقاربهم -أبنائهم، أزواجهم، آبائهم، وأمّهاتهم- الذين بقوا على الكفر ولم يهاجروا إلى المدينة. ويعالج الإسلام والقرآن الكريم هذه العلاقة العاطفيّة والقلبيّة فيما بينهم، ويُجيب عن هذه الحاجة العاطفيّة؛ فالآية القرآنيّة في مقام بيان هذه المسألة المهمّة، حيث إنّ هناك عددًا من أهل مكّة بعد أن أسلموا هاجروا وقدِموا وحدهم إلى المدينة، وتركوا آباءهم وأمّهاتهم وأبناءهم ومنازلهم وأصدقاءهم ورفاقهم القدامى وخرجوا من مكّة، ومنهم من ترك أزواجه. وعلى كلّ حال، فعندما آمن المهاجرون وزال الكفر من قلوبهم، بقيت تلك العاطفة وتلك المحبّة القلبيّة القديمة، لأنّ المحبّة لا تزول من القلوب

(1) سورة الممتحنة، الآية: 7.

بسهولة. ويصرّح القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة بأنّه لا بدّ من قطع هذه العلاقة القلبيّة وهذه المودّة والمحبّة مع الكافرين، حتى لو كانوا أقارب وأصدقاء قدامى، ولا ينبغي للمؤمن أن يكنّ في قلبه شيئًا من المحبّة للكافرين. وتُجيب الآية القرآنيّة عن هذه المسألة وتقول: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾؛ فالله قادر على فعل هذا الأمر، فيعيد إليكم هذه المحبّة التي كانت بينكم في وقت لاحق، وهذا ما حصل فعلًا، فإنّه سبحانه وتعالى قد حقّق هذا الأمر للمهاجرين بعد فتح مكّة، فأعاد إلى القلوب علاقة المحبّة والمودّة بين الكافرين الذين بقوا في مكّة، وبين أقاربهم المتعلّقين بهم الذين آمنوا وهاجروا إلى المدينة، فعادت علاقة المحبّة والمودّة وأصبح الجميع مسلمين وأخوة فيما بينهم. ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فهو سبحانه قادر على كلّ شيء، وغفور بمعنى أنّه يغفر ذنوب أولئك الأشخاص الكافرين بالله والذين ارتكبوا الذنوب والسيّئات قبل مرحلة المحبّة التي سوف تتحقّق في المستقبل، وهو رحيم بأولئك الأشخاص الذين آمنوا وأصبحوا عبيدًا لله بعد تلك المرحلة، وهو سبحانه سوف يرحمهم ويحبّهم ويكون عطوفًا عليهم.

البرنامج الإسلامي لتوجيه محبّة المسلمين

وفي المقام من الضروري الالتفات إلى نكتة مهمّة، وهي أنّ المحبّة عبارة عن أمر قلبيّ، وهي علاقة معنويّة بين شخصين، وهي في الغالب تكون خارجة عن الاختيار الإنسانيّ، فلا يستطيع الإنسان أن يقول: لقد قرّرت أن أحبّ زيدًا وأن أبني معه علاقة محبّة

عاطفيّة، أو أنّني قرّرت أن أقطع علاقتي بزيد ولا أحبّه، فإنّ هذا الأمر غير ممكن، لأنّ المحبّة إنّما تعرض على قلب الإنسان وتظهر فيه بحسب العوامل المؤثّرة، فالإنسان يحبّ أبناءه، والده، أمّه، إخوته، زوجه، أصدقاءه، أقاربه، زملاءه في العمل، وهؤلاء بشكل طبيعيّ يتعلّق قلبه بهم، لكن هذا الأمر ليس بيد الإنسان واختياره، ليغرس في قلبه المحبّة متى ما يشاء أو ينتزعها منه متى ما يشاء.

ويربّي القرآن والإسلام المسلمين ويعلّمهم أن يجعلوا محبّتهم باختيارهم وتحت سيطرتهم، فكما تكون المحبّة والعلاقة المعنويّة والمودّة خاضعة لأحاسيس ومشاعر الإنسان، فإنّها يمكن أن تخضع أيضًا للتّعقّل؛ فقد تكون محبّة الإنسان خاضعة لمجرّد المشاعر والأحاسيس، فيحبّ شخصًا ما، لما يمتلكه من صفات معيّنة كالجمال المعنويّ، أو الجمال الظاهريّ، فيحبّه ويعشقه، وتكون المشاعر والأحاسيس هي المؤثّرة في تحقيق هذه المحبّة وإيجادها، وعندما يزول هذا الجمال المعنويّ أو الظاهريّ ستزول معه هذه المحبّة، وما ذلك إلا لأنّ المؤثّر في المحبّة قد كان مجرّد المشاعر والأحاسيس. ولكن في بعض الأحيان يكون المؤثّر في المحبّة هو المنطق والاستدلال. ويحبّ الإنسان شخصًا معيّنًا لأجل إيمانه، فإذا زال الإيمان من هذا الشخص ستزول محبّته أيضًا، لأنّه دائمًا إذا زال المؤثّر زال الأثر وزالت المحبّة.

التعقّل منشأ المحبّة في الإسلام

يريد القرآن الكريم أن تخضع المحبّة عند الإنسان المؤمن للاستدلال والمنطق والعقل أيضًا، ولا يحصرها بالمشاعر

والأحاسيس. وبعبارة ثانيّة، لا يريد القرآن أن نحبّ الأشخاص لمجرّد ما نشعر به ونحسّه تجاههم، فنحبّ فلانًا مثلًا لأجل أخلاقه الحسنة، أو صوته الجميل، أو جماله الظاهريّ، أو أنّ حركاته جميلة ومحبّبة، أو لأنّه يظهر المحبّة لنا فنحن في المقابل نبادله الحبّ ونظهره له، كلا، بل لا بدّ من أن تكون المحبّة خاضعة لأمر عقليّ معنويّ غير المشاعر والأحاسيس، فما هو هذا الأمر؟ إنّه الإيمان. تقول الآية القرآنيّة في بداية السورة، والتي تعرّضنا لها سابقًا، إنّ الكفّار في مكّة وأنتم في المدينة، فهم كافرون وأنتم مؤمنون، ولا بدّ من قطع أواصر المحبّة فيما بينكم ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾[1]، فلماذا يجب قطع أواصر المودّة معهم؟ لأنّهم كفّار وأنتم مؤمنون. ومن هو هذا الشخص الذي ينبغي قطع أواصر المحبّة معه؟ من الممكن أن يكون الأب أو الابن أو الزوج أو الأخ، فلذا تقول الآية القرآنية الأخرى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[2]، فحيث إنّكم مؤمنون وهم كفّار فينبغي قطع علاقة المحبّة معهم، مهما كانت الصّلة بينكم، فقد يكون هذا الشخص والدكم، أمّكم، ابنكم، أخاكم، أختكم، زوجكم، أو صديقكم القديم القريب والحميم، لا يهمّ من يكون، بل المهمّ هو ضرورة قطع أواصر المحبّة معه، بسبب إيمانكم من جهة، وكفرهم من جهة أخرى. وقد يستلزم الأمر، جرّاء قطع أواصر المحبّة بينكم، أن يقف أيٌّ منكم في بعض الأحيان في مواجهة الآخر، فيواجه الولد أباه، كما في قصّة عبد الله بن أُبَيّ الذي ذكرتُها

(1) سورة الممتحنة، من الآية 1.

(2) سورة المجادلة، من الآية: 22.

سابقًا، حيث كان عبد الله بن أُبيّ منافقًا، لكنّه كافر قلبًا ووجدانًا، وقد قال ابنه لرسول الله ﷺ: «يا رسول الله إذا كان المقرّر أن يُقتل عبد الله بن أُبيّ فأذنْ لي أن أقوم أنا بقتله» فلماذا يطلب الإذنَ بقتل أبيه من الرسول؟ لأنّه كان مؤمنًا وأبوه عبد الله منافقًا كافرًا. وقد نقلتُ مرارًا خطبة أمير المؤمنين عليه السلام التي كان يقول فيها: «فلقد كنّا مع رسول الله نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا»[1]، بمعنى أنّهم إذا واجهونا ليحاربونا فسوف نقتلهم، وهذا معنى قطع علاقة المحبّة وأواصر المودّة، والسّرّ في ذلك هو أنّ أحد الأطراف مؤمن والآخر كافر، فتصل بهما الأمور إلى درجة أنّهما إذا وقفوا وجهًا لوجه متخاصمَين متحاربَين يقتل أحدهما الآخر، الأوّل مؤمن والآخر كافر، فقد كان المؤمن مستعدًّا أن يقتل الكافر حتّى لو كان ابنه، فكان يقتله ولا يبالي، ولا يرمش له جفن.

ولكن بعد أن دخل المسلمون إلى مكّة فاتحين، وأصبح كافرو مكّة مؤمنين، فإنّهم بمجرّد أن أصبحوا مؤمنين تبدّلت القضيّة، وانعقدت من جديد أواصر المحبّة والمودّة بين هذا المؤمن وذلك المؤمن، فذلك الشخص الذي كان كافرًا بالأمس وكنتم أيّها المؤمنون على خلاف وعداوة معه، ولو كان يقف في مواجهتكم لقتلتموه، وهو كذلك الأمر كان يواجهكم ويسعى لقتلكم، فإنّه الآن أصبح مؤمنًا وأصبح أخًا لكم ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[2]، تُبيّن الآية التي نحن بصدد بيانها ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ أنّه قد توجد المحبّة من جديد، فمتى تتحقّق

(1) نهج البلاغة، من الخطبة 56.

(2) سورة الحجرات، من الآية 10.

هذه المحبّة؟ الجواب: عندما يتحقّق الإيمان، وذلك الشخص نفسه الذي كان مدةً عدوًّا لكم، وكان يعيش في دار الكفر، متى ما هاجر إلى دار الإيمان وآمن بالله، صار أخًا لكم في الدين وتجب عليكم محبّته. وقد نقلتُ مرارًا هذا الحديث عن الإمام محمد التّقيّ عليه السلام: «المؤمن أخو المؤمن لأبيه وأمّه»[1]، ومعنى الحديث، أنّ علاقة الأخوّة بيني وبينكم -وإن شاء الله نكون مؤمنين- هي أقرب من علاقة الأخوّة مع أخينا من أبينا وأمّنا فيما لو كان، لا قدّر الله، ليس بمؤمن، فإنّ العلاقة بيننا قريبة جدًّا وهي أقرب من علاقة الدّم.

إذًا، لا بدّ من الانتباه إلى هذا الأمر، وأنّ المحبّة والمودّة والعلاقة العاطفيّة والعشق بين شخصين لم تعد تخضع للمشاعر والأحاسيس والعواطف، وصار من الضروري أن تخضع لأمر منطقيّ عقليّ، وتنشأ من أمر معنويّ حقيقيّ، فما هو هذا الأمر؟ إنّه الإيمان بالله سبحانه وتعالى. وهذا ما تشير إليه الآية القرآنية.

جواز محبّة الكافرين غير الحربيين

كنّا نقول من بداية السورة إلى هذا الموضع إنّه ينبغي معاداة أولئك الأشخاص الذين هم أعداء للمؤمنين وأعداء لله سبحانه وتعالى. لكن السؤال هل المراد من هؤلاء الأعداء مطلق الكفّار، بمعنى كلّ شخص في الدّنيا يُعدّ كافرًا فلا يمكن أن نبني معه علاقة محبّة، ولا يمكن أن نُحسن إليه، أم أنّ الأمر ليس كذلك؟

(1) بحار الأنوار، ج: 64، ص: 76. والأصول الستة عشر، ص 63.

الجواب: إنّ الكفّار على قسمين: فبعض الكافرين لا يُمكن لنا أن نبني معهم علاقة مودّة، لكن هناك بعض الكافرين من الممكن أن نبني معهم علاقة مودّة. وهاتان الآيتان تبيّنان هذا الحكم، وتقولان إنّه لا ينبغي أن نُعادي جميع الكفّار، فهناك نوع من الكفّار لا ينبغي معاداتهم بل يمكن محبّتهم، وهم الكافرون الذين لا يؤمنون بالله ولا يعتقدون به، ولعلّ في قلوبهم عداوة مع الله سبحانه وتعالى، ولكن في الوقت نفسه تنبغي محبّتهم، فمن هم هؤلاء الأشخاص؟ هؤلاء هم الكفّار الذين لم يتعرضوا للمؤمنين بالأذى ولم يحاربوهم ولم يواجهوهم، ويدعونهم وشأنهم يعيشون كما يحلو لهم، ولكم دينكم ولهم أيضًا دينهم واعتقادهم، فهم يؤمنون بصنمهم ولهم فكرهم الخاصّ وعقيدتهم الخاصّة وأيديولوجيتهم الخاصّة، ولا علاقة لهم بأعمال المؤمنين، فهؤلاء الأشخاص لا تنبغي عداوتهم، والله سبحانه وتعالى لا ينهى عنهم، ومن الممكن أن نُحسن إليهم، ونتعامل معهم بشكل مناسب ولائق، وهذا الحكم مهمّ جدًّا.

وما يُذكر عن الجمهوريّة الإسلاميّة أنّها تضغط على كلّ غير الملتزمين بالإسلام بسبب أفكارهم وعقيدتهم وأيديولوجيتهم الخاصّة، فإنّ هذا القول من أكبر الأباطيل والأكاذيب، وهذا ما تُكذّبه الآية ويُكذّبه واقع الجمهوريّة الإسلاميّة. وقد كان هذا الأمر في زمن النّبيّ الأكرم ﷺ، وفي أيام خلفاء النّبيّ أيضًا لمدّة طويلة من الحكومة الإسلاميّة -التي لم تكن في الأغلب حكومة الإسلام، كانت حكومة شبه إسلاميّة- وكانت تُطبّق بعض أحكام الإسلام، ومع ذلك كان هناك التزام بهذا الأمر، فإنّنا لا نضغط على أيّ إنسان بسبب عقيدته غير الإسلاميّة، ولا نقطع العلاقة الإيجابيّة معه، ولا

نقطع الإحسان عنه، ولا نتحسّر إذا قمنا بالإحسان إليه، إلا إذا كان هذا الشخص غير المعتقد بالإسلام قد شهر سيفه في مواجهة المسلمين، وهذا يعني أنّنا نحارب الكافر المحارب لنا. وهذه الآية القرآنية تُبيّن حكم الكافر المحارب والكافر غير المحارب. طبعًا بعض المفسّرين قد فسّر الآية الأولى بالكافر المعاهد[1]، لكن الآية بحسب تفسيرنا هي أعم من الكافر المعاهد والكافر غير المعاهد.

فإنّ هذه الآية تقسّم الكافر إلى قسمين: قسم من الكفّار لا يتعرّض للمسلمين ولا للمجتمع الإسلاميّ ولا للحكومة الإسلاميّة ولا النّظام الإسلاميّ، ولا يشهر سلاحه بوجه المجتمع الإسلاميّ والنّظام الإسلاميّ، ونحن لا نتعرّض لهذا القسم من الكافرين بأيّ نوع من أنواع الأذى، فنتركه يعيش كما يحلو له، ونحن نعيش حياتنا كما يحلو لنا، وهذا القسم من الكافرين يمكن بناء علاقة محبّة معه، ويمكن الإحسان إليه، ويمكن التعامل معه [بمحبّة] ولا إشكال في ذلك أبدًا.

أما القسم الآخر من الكافرين الذين يتعرّضون للمجتمع الإسلاميّ، فهؤلاء هم من ينهى الله سبحانه وتعالى عنهم، وعن أن نبني معهم علاقة محبّة. إذًا هذه الآية تبيّن القسم الأوّل من الكافرين بقوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾، فهي تعني أنّه لا بدّ من التعامل معهم بعدل وإحسان، ولا تقول لا تتعاملوا معهم

(1) الكافر المعاهد هو الكافر الذي قام بعقد صلح مع الحكومة الإسلامية.

بالإحسان، ثمّ تكمل الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[1]. ما معنى أنّ الله يحبّ المقسطين؟ يعني يحبّ العادلين الذين يُعتبرون من أهل المروّة والعدالة في تعاملهم مع النّاس جميعًا. إنّ الله يحبّ هذا النّوع من النّاس سواء كان مسلمًا أو كافرًا. ولا يخفى أنّ مصداق تلك الآية في ذلك الزّمن كان غير المشركين من مكّة، وبعض الكافرين الذين كانوا في تلك المنطقة -سواء كانوا يهودًا أو نصارى أو صابئة أو غيرهم- هؤلاء جميعًا كانوا كفّارًا لكن لم يتعرّض بعضهم للحكومة الإسلاميّة ولم يتعرّضوا للنّبيّ الأكرم ﷺ بالأذى ولا للمسلمين، لذلك يمكن بناء علاقة جيّدة وحسنة معهم بلا أي إشكال.

ضرورة وضع حدّ فاصل مع الكفّار المحاربين

من هم الأشخاص الذين ينهانا الله عن بناء علاقة معهم؟ تقول الآية: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾، وهم الكفّار الذين هم في حرب مع المسلمين. لكن لا يخفى أنّ الحرب على نحوين: حرب ظاهريّة، وحرب باطنيّة أو مخفيّة، يطعن فيها العدو بالخنجر من الخلف؛ ففي تلك الأيّام كان بعض اليهود جيران المدينة المنوّرة، ويعيشون في كنف محبّة الإسلام والحكومة الإسلامية، لكن هؤلاء اليهود كانوا يطعنون بالخنجر من الخلف، وهذا ما نشاهده في مجتمعنا نحن أيضًا، حيث لنا أعداء في خارج البلاد، ولنا أعداء في داخلها أيضًا، وهم يظهرون لنا الحبّ والمودّة، لكنّهم في الواقع يطعنوننا بالظهر بخناجرهم، ونحن نشعر بألم هذه الخناجر في أعماق وجودنا، لكن لأنّ الله سبحانه وتعالى معنا، فلم نسقط لحدّ

(1) سورة الممتحنة، الآية: 8.

الآن، لكنّنا نعرف أنّهم يطعنوننا بخناجرهم، ولسنا أغبياء لدرجة أن لا نعرف ما يفعلون بنا! يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «والله لا أكون كالضّبع تنام على طول اللدم» يعني لا نكون مثل هذا الضّبع -وهو حيوان يحبّ النوم- عندما يُتمتم أحدهم في أذنه أي ترنيمة بسيطة، سرعان ما يخلد إلى النوم [فيسهل اصطياده]، لسنا كذلك، ونعرفُ بالضبط ماذا يجري حولنا، وأمير المؤمنين عليه السلام كان يقول: «نحن نعرف ماذا يجري في الشّام والكوفة والمدينة والحجاز وفي هذا المكان وفي ذلك المكان، وكلّ ما يُحاك من مؤامرات ضدّنا، وضدّ حكومتنا، وبكلّ تصرّف يقومون به، ظنوا أنّه سيخفى علينا، لكنّهم واهمون». ونحن ندّعي هذا الأمر أيضًا -وهو إن شاء الله ادّعاء صحيح- وهو أنّنا شيعة أمير المؤمنين، وكلماته عليه السلام محفورةٌ في صدورنا وفي أذهاننا: إنّنا لسنا أغبياء ونعلم بكلّ عدوّ في مجتمعنا، وخارج مجتمعنا، وهناك من يدّعي ظاهرًا أنّه معنا، وأنّه يحمينا، لكنّه طعننا في ظهورنا، ولا يزال يؤذينا شرّ أذيّة من الخلف.

وعليه، فإنّ الحرب لا تكون صريحة دائمًا، فبعض الحروب غير صريحة، وتشمل الآية القرآنيّة هؤلاء الأشخاص، لذلك ينهانا الله عنهم بقوله تعالى: ﴿قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ﴾ لأنّكم متديّنون يقاتلونكم «وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ»، فإنّهم قد أخرجوكم من بيوتكم ومن مجتمعكم الذي كنتم فيه. ومصداق هذه الآية في ذلك الوقت مكّة والمدينة، حيث أخرج كفّار مكّة ومشركوها في تلك الأيّام المسلمين من بيوتهم وديارهم ومدنهم، وآذوهم، تقول الآية: ﴿وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾، وبعضٌ منهم لم يقمْ بنفسه بهذه الأفعال القاسية وبهذه الأذيّة بشكل مباشر، لكنّه ساعد على ارتكاب هذه الأمور.

اليوم يُحاول الشيطان الأكبر بكلّ قوّته توجيه ضربة لنظام الجمهوريّة الإسلاميّة. وقد خرج من خلف السّتار ولم يعد الأمر مخفيًّا؛ فكل العالم أصبح يدرك كيده وأذيّته للجمهورية الإسلاميّة، وهذا أمر ليس بجديد، وإنّما يحصل في كلّ الثّورات الأصيلة في العالم؛ فبعد مرور مدّة على الانتصار تبدأ المؤامرات لإسقاط الثورة، وإذا لم ينجحوا بذلك، تبدأ الهجمات العسكريّة. وقلّما توجد ثورة في العالم تخلو من هذه الهجمات العسكريّة من قِبَل جيرانها، فإنّهم يزجّون بالدّول المجاورة من هذه الجهة ومن تلك الجهة ليشنّوا حروبًا عسكريّة على الثورة. وهذا ما جرى في أفريقيا، وأميركا اللاتينيّة، وفي آسيا، وفي الشرق الأوسط، وفي جميع البلدان التي حصلت فيها ثورات -طبعًا أقول في أغلب الثورات ولا أقول في جميعها- فإنّه تحصل مثل هذه الأمور، ونحن علينا أن نتوقّع هذه الأشياء منهم، فكان علينا أن نتوقّع هجومًا عسكريًّا بتحريض من القوى العالمية العظمى وكلّ الأنظمة الخاضعة للنفوذ الأميركي في المنطقة، وبعضٌ منهم لم يكن يملك القدرة على مواجهتنا ولا الجرأة على أن يزجّ بنفسه في هذا الخطر، ويشنّ حربًا علينا، لكنّه كان يساعد ويحمي أولئك الأشخاص الذين كانوا في مواجهة معنا، ويقدّم له كلّ الوسائل وبشتّى الكيفيّات من خلال الدعايات والفاعليات السياسيّة، ويقدّم المنح الماليّة والأسلحة وجميع المساعدات التقنيّة وغير ذلك. نحن نعرف هؤلاء الأشخاص جيّدًا، فكلّ من كان يحرّض علينا تشمله الآية القرآنيّة: ﴿وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ﴾ حتّى لو كان سبب نزول هذه الآية -كما أحتمل ذلك- في الصدر الإسلاميّ الأوّل في المدينة بحقّ بني ثقيف وأمثالهم،

حيث كانت قريش تتصدّى لمواجهة النبيّ في ساحة المعركة، وبنو ثقيف وغيرهم يجلسون خلف السّتار يقدّمون المدد والعون لقريش من الخلف ويظاهرون على النّبيّ.

النّهي عن بناء علاقة صداقة مع الكفّار المحاربين

لقد نهى الله سبحانه وتعالى عن بناء علاقة بأشخاص معيّنين «أَنْ تَوَلَّوْهُمْ»، فأيّ علاقة يقصد؟ علاقة صداقة، علاقة سياسيّة، علاقة مساندة؟ إنّه سبحانه وتعالى قد نهى عنها كلّها. اتركوا هؤلاء الذين هم على عداوة معكم، والذين يحاربونكم ولا تتعاملوا معهم. وهذا الحكم يرسم لنا طريقًا واضحًا في سياساتنا الخارجيّة، ويحدّد السياسة الدّاخليّة أيضًا، لأنّه في الداخل أيضًا يجري الحكم نفسه، وكلّ شخص يساند ويساعد المجموعات المعادية لنا يجري عليه الحكم نفسه. في بعض الأحيان قد يشهر شخص سلاحه ويواجه الجمهوريّة الإسلاميّة ويقتل العناصر والشرطة والحرس، وإذا لم يستطع ذلك يُقدم على قتل الناس العاديّين، فيضع متفجرة هنا، أو في مؤسسة أو تعاونية أو في محلّ خضار أو في مقهى، وهناك من يقوم بهذه الشرور فعلًا، وأذكر هذا الكلام من الحياة الواقعية وليس مجرّد مثال، فهذا الشخص يطلق عليه أنّه عدوّ محارب وحكمه واضح.

لكن أحيانًا لا يقدر هذا الشخص على ارتكاب هذه الشرور بنفسه، أو لا يمتلك الجرأة على فعلها بنفسه، لكنّه يقوم بالمساندة والمساعدة، فعلى سبيل المثال يُشجّع من يحاربنا ويقول له (أحسنت)، فالمساعدة تبدأ من كلمة (أحسنت) ويظهر مساندته

العمليّة بهذه الكلمة، أو يقوم بإعطائه الأموال والسلاح ويرشده إلى الأسلوب أو السبيل للقيام بعمله، وغيرها من الأمور، فالآية القرآنيّة الكريمة تشمل كلّ هؤلاء الأشخاص أيضًا.

تقول الآية: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ﴾، أي فكلّ شخص يرتبط بهم ويتعلّق فيهم ويتولّاهم -والولاية أعمّ من ولاء الصداقة أو الولاء السياسي أو ولاء المساعدة وغيرها- ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1]، هؤلاء الأشخاص الذين يبنون علاقة صداقة معهم ظالمون أيضًا، وإن قلت إنّه إنسان، [فكيف يُحكم عليه بالظلم؟] قلنا نعم، هو إنسان لكنّه يقتل النّاس، وإن قلت إنّه إنسان أو له سياسته الخاصّة، قلنا نعم، له سياسته الخاصّة لكن سياسة في مقابل السياسة الإلهيّة، وضدّ السياسة الإسلاميّة، وتخالف سياسة هذا المجتمع الذي وقف على قدميه، فلا ينبغي أن نساعده أو نترحّم عليه، تمامًا كما يقول المثل: (إنّه ترحّم على الفهد الحادّ الأسنان، وما هي حقيقته؟ عدو للخرفان). وأنقل رواية عن الرسول ﷺ أنّه قال: «هل الدين إلا الحبُّ والبغض؟»[2]؛ هل في الدّين شيء يأمرنا أن نحبّ شخصًا أو نعاديه؟ أو هل يوجد حبّ وبغض من الأساس في الدين؟ وكان الجواب: «وهل الدين إلا الحبّ أو البغض؟»، فذات الدين يعني الحبّ والبغض، فهو يبدأ من محبّة الله ومحبّة أولياء الله ومحبّة النّاس ومحبّة عباد الله ومحبّة مخلوقات الله سبحانه وتعالى ومحبّة موجوداته، وكذلك البغض، بغض لأعداء الله، المبغضين لله ولرسوله وهكذا...

(1) سورة الممتحنة، الآية: 9.

(2) حكم النبيّ الأعظم، المحموديّ، الفصل الثاني التأكيد على المحبّة، ص 395.

عمل الأنبياء هو الفصل بين الأخيار والأشرار في المجتمع

الدّين يعني التّكتل. وقد تحدّثت حول مسألة التّكتل كثيرًا، وقد فكّرت في هذا الأمر وقتًا طويلًا، وهي مسألة أنّ الدّين عبارة عن التّكتل والاصطفاف. وقد كان العمل الأوّل لجميع الأنبياء أن رسموا خطًّا في وسط المجتمع وقسموه إلى قسمين، إلى مؤمن وكافر، وأوجدوا تكتّلًا واصطفافًا بين النّاس. وتشير بعض آيات القرآن الكريم إلى هذا المعنى وتعبّر بالاختلاف، كقوله تعالى ﴿وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ﴾[1]. ومعنى الآية: أنّ الأنبياء في بداية الأمر كانوا يقومون بهذا العمل، فعندما كان يتحرّك المجتمع الجاهليّ باتجاه منحدر السقوط والفناء، ويتوجّه إليه بسرعة هائلة كبارًا وصغارًا، أغنياء وفقراء، علماء وجهلة، جميعًا -كذلك لو تحقّق هذا الأمر في مجتمع جاهليّ وطاغوتيّ كمجتمعنا، حيث كان الجميع يتّجه إلى الشقاوة والظلم والفسق والفجور، وفي نهاية المطاف إلى الدّرك الأسفل-ويظهر في مجتمع كهذا نبيّ كموسى أو عيسى أو إبراهيم أو غيرهم من الأنبياء عليهم السلام، فإنّ أوّل عمل كانوا يقومون به هو إيقاف هذه الحافلة المتجهة نحو الانحطاط والفساد، هذه الحافلة التي كان يقودها من الخلف الطاغوت ويسوقها باتجاه الانحطاط وإلى نار جهنّم ﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ٢٨ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾[2]. هذا هو حال المجتمع الطّاغوتيّ الذي بدّل نعم الله كفرًا وساق أهله إلى دار البوار، إلى العدم وإلى ذلك المنزل السيّئ. ما هي دار البوار؟

(1) سورة آل عمران، الآية: 105

(2) سورة إبراهيم، الآيتان: 28، 29

الجواب: هي جهنم ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ فيدخلون إليها ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ ما هذا المكان السيّئ الذي سوف يستقرّون فيه؟! في مجتمع كهذا، كان يتّجه نحو الكفر والنّفاق والفساد والنّار وإلى ذلك الوادي من جهنّم، فجأة كان يظهر النّبيّ ويمنعهم من هذا السقوط، وغالبًا لم يكن قادرًا للوهلة الأولى على إيقاف هذه الحركة العظيمة لهذه الحافلة التي كانت تتّجه إلى دار البوار، ولكن عندما كان يمدّ يده ويجتمع حوله عدد من المؤمنين، عندها كان يستطيع أن يوقف بعض الأشخاص وبالتدريج ورويدًا رويدًا، وقليلًا قليلًا، وجمعًا جمعًا، وعدّة عدّة، وكلّما ازداد العدد يستطيعون أن يقفوا سدًّا مانعًا ولا يسمحون لهذه الحافلة بأن تتّجه إلى وادي جهنّم. هذا هو عمل النّبيّ. وعليه، فإنّ النّبيّ يقف أوّلًا ومن ثمّ يمنع هذه الحافلة من التّحرك، ثمّ يكوّن تكتّلًا، وبعبارة أخرى إنّ النبيّ يوجد تكتّلًا واصطفافًا ليصبح النّاس مجموعتين: مجموعة من النّاس تركض إلى هذه النهاية السيّئة والمؤلمة التي تنتظرهم، ومجموعة أخرى يلبّون نداء النّبي ويقفون ويرجعون عن ذلك الطريق الخاطئ إلى طريق الصّواب، أو إنّهم يقفون قليلًا يفكّرون ثمّ يرجعون ويعودون. إذًا، بين هاتين المجموعتين توجد علاقة البغض والعداوة والكراهيّة. وقد ذكرنا ذلك في الآيات السابقة من هذه السورة عن قول إبراهيم عليه السلام ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾[1]؛ فلو نلاحظ هذه الآية من بدايتها حتّى هذه الآيات نجدها تبيّن هذا الاصطفاف والتكتّل، الذي يبتني

(1) سورة الممتحنة، من الآية: 4.

الجلسة الرابعة:
(١٢/١١/١٩٨٢ م.)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات: 11 -13 من سورة الممتحنة

﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾

خلاصة الجلسة الماضية

لقد بيّنَتِ الآية القرآنيّة السّابقة مسألةً كانت محلّ ابتلاء في زمن نزول تلك الآيات، وقد تقدّم منّا شرح تلك المسألة، وقد ذكرنا على نحو الإجمال أنّه بعدما تمّ عقد صلح الحديبيّة، بين النّبي الأكرم من جهة وبين الكافرين من جهة أخرى، كان قد ذكر في الصلح شرط وهو أنّه لو التجأ رجل من المسلمين إلى الكفّار فإنّ الكفّار غير ملزمين بإرجاعه إلى النّبي، ولكن لو أنّ رجلًا من الكفّار التجأ إلى المسلمين فإنّ المسلمين ملزمون بإرجاعه إلى الكفّار. وقد كان هذا الشّرط بالنسبة لبعض المسلمين غريبًا جدًّا، وأنّه لماذا يستخفّ الكفّار بنا كمسلمين، فإنّ هذا الصّلح وهذه المعادلة غير متكافئة، ولكن كانت المصلحة على هذا النّحو التي شخّصها النّبي الأكرم، وقد شرحنا ذلك في الجلسة السابقة، وأنّه قد نُصَّ في هذا الصّلح [وفي هذا الشرط] على الرجل ولم تذكر المرأة، فلو أنّ امرأة التجأت إلى إحدى الجهتين فما العمل؟ وبعد أن تمّ عقد صلح الحديبيّة التجأت امرأة من الكفّار إلى النّبي الأكرم، وسعى خلفها زوجها، وكان هذا الزوج يقول لقد تمّ عقد الصّلح، وهذا العقد جديد العهد -في تلك الأيّام بدل الختم بالحبر كانوا يختمون بالتراب- وما زال تراب [حبر] هذا العقد لم يجف بعد، لذلك أطلب أن تردّوا لي زوجتي، فرفض النّبي الأكرم ذلك، مبرّرًا أن عقد الصلح مع

المشركين لم ينصّ على حكم النّساء وإنّما ذكر فيه الرجال، ومهما كان يصرّ الرجل على استرجاع زوجته كان يواجه بالرفض من قبل النّبي الأكرم، ولا يردّها له، لأنّها أصبحت مسلمة، والمسلمون لا يرجعون المسلمة إلى الكافر، لأنّ النّبيّ لو ردّ هذه المرأة إلى زوجها، فإنّه كان سيأخذها ويعذّبها ويضغط عليها، أو أنّه يردّها عن الإسلام، أو يقتلها. وعليه، كان النّبي يقبل النّساء اللواتي أسلمنَ والتجأنَ إلى معسكر النّبيّ. وقد قرأنا في الآية السّابقة أنّه كان من الضروريّ أن تمتحن هذه النسوة ليرى المسلمون هل أنّ اللواتي أتين إلى النّبي ولجأن إليه، جئنّ لتعلّقهن بشخص من المسلمين، أو للتجسّس، أو لشيء من هذا القبيل؟ فإذا كنّ واقعًا قد أسلمن فلا بدّ من قبولهنّ.

وقلنا أيضًا لو أنّ امرأة من الكفّار التجأت إلى معسكر المسلمين فإنّه من حقّ زوجها الكافر أن يطالب بمهرها، ويقول إن لم ترجعوا لي زوجتي فعلى الأقلّ عليكم رد ما قدّمته لها من المهر، وكان الحكم أن يعطى هذا الرجل مهر هذه الزوجة، و[وقد قالت] الآية القرآنية ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾[1]، أي أعطوه المهر الذي دفعه لهذه المرأة. وفي المقابل لو أنّ امرأة مسلمة التجأت إلى الكفّار، فمن الطبيعيّ جدّاً -طبق الشرط المذكور في الصّلح- أن لا يُرجع الكفّار هذه المرأة إلى المسلمين ويحتفظوا بها، لكن من حقّ الزوج المسلم أن يذهب إلى الكفّار ويطالب بالمهر الذي دفعه لها، والمطلوب من الكافرين أن يعطوه هذا المهر وهذا هو واجبهم.

(1) سورة الممتحنة، من الآية: 10.

هذا حكم كليّ كان محلّ ابتلاء في تلك الأيّام وقد نزلت فيه هذه الآية القرآنيّة.

المنع من أخذ مهر المرأة التي التجأت إلى الكفّار

الآية التي سوف نتعرّض لبحثها اليوم هي من فروع المسألة السّابقة، وهي لو أنّ امرأة رجل مسلم التجأت إلى الكفّار، والكفّار من جهتهم احتفظوا بها، ولم يعطوا هذا الزوج المسلم مهرها، ثمّ أصرّوا على الرفض أيضًا، فماذا نفعل؟ هل يشنّ المسلمون حربًا مع الكفّار لأجل ذلك؟ الجواب: قطعًا لا، فلو حصل هذا الأمر ولم يدفع الكفّار للزوج المسلم مهر المرأة التي لجأت إليهم، فالحلّ هو: عندما تقع الحرب مع الكفّار ويغنم المسلمون منهم، عندها يعطى هذا الرجل مقدار مهره للمرأة من هذه الغنيمة. وقد تناولت الآية هذا الأمر، لكن تختم بالأمر بالتقوى، ولعلّ الأمر بالتقوى فيها لتبيّن أنّه لو رأى الرجال الغنيمة كبيرة والأموال كثيرة عندها يطالبون بمهر كبير أيضًا، ويدّعون أنّ مهر الزوجة كان كبيرًا بهذا المقدار، فلو قدّم لها، على سبيل المثال مائة تومان فيقول دفعت مائتي تومان. هذا كان في آخر الآية الأولى، ثمّ تقول الآيات الأخرى:

﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ المراد بالشيء هنا هو المهر ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ أي وقعت الحرب بينكم وبين الكفّار وغنمتم منهم ﴿فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾ أي أعطوا هذا الرجل الذي التجأت زوجته إلى الكفّار هذا المهر ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، وقد ذكرت مرارًا أنّ التّقوى تعني مراعاة الأمر الإلهيّ ونهيه، ومراعاة الضوابط الإلهيّة، وأن تعلموا أنّ الله سبحانه وتعالى

حاضر دائمًا وشاهد عليكم، فكونوا على حذر دائمًا. وكلّ هذه المفاهيم مجتمعة تعني التّقوى، فعندما يأمر الله سبحانه وتعالى المسلمين بالتّقوى فإنّ ما ذكرته يعتبر أحد أمثلتها، وهي ما لو طالب هذا الرجل الذي التجأت زوجته إلى الكفّار بمقدار أكبر من المهر الذي دفعه لها حقيقة، لأنّه يرى أنّ الغنائم كثيرة وهو قد دفع مائة تومان فيضيف على ذلك ويطالب بأكثر. كلا، إنّ الآية تقول: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، ويمكن أن يكون المثال الآخر للتقوى هو أن لا يقول المسلمون، الذين هم شركاء في هذه الغنيمة، في أنفسهم نحن لا نعطي هذا الرجل الأموال، ولماذا نعطيه مائة تومان، وهذه زوجته قد التجأت إلى الكافرين فما علاقتنا بهذا الأمر؟ ولماذا نعطيه المائة تومان زيادة على ما غنمه؟ كلا، الأمر ليس كذلك ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، فإنّ هذا الحقّ قد فرضه الله له، فأعطوه إيّاه ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾[1] والفرق بينكم وبين الكفّار الذين لم يعطوا هذا الرجل مهر زوجته، ووقعت الحرب بينكم وبينهم وغيرها من الأمور هو هذا الأمر، هو أنّكم مؤمنون وهم كفّار، وبما أنّكم مؤمنون بالله سبحانه وتعالى فاتقوا الله.

شروط بيعة النساء المسلمات الجديدات

يُوجد في سبب نزول الآية الثّانية احتمالان:

الأول: أنّها نزلت في الفترة الزّمنيّة نفسها التي نزلت فيها الآيات السّابقة عليها، أي بعد صلح الحديبيّة، وهذا ما ذكره بعضَ المفسرين.

(1) سورة الممتحنة، الآية: 11.

الثّاني: أنّ هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها قد نزلت بعد فتح مكّة.

فكلا هذين الاحتمالين وارد وممكن. وهذه الآية تتحدّث عن النّساء اللواتي لجأنّ إلى النّبي وأسلمن وآمنّ وهربن من الكفّار. فما هي الشروط التي ينبغي للنّبي أن يعقدها معهنّ حتّى تُقبل بيعتهنّ؟ إنّ هذه الآية تتعرّض لشروط وتذكر حكمًا أيضًا. وعندما ننظر لهذه الآية نجد بحسب الظاهر وللوهلة الأولى حكمًا فقهيًّا، فما هو الشرط الذي كان يُفرض من قِبَل وليّ أمر المؤمنين وهو النّبي محمّد ﷺ عندما كان يَقبَل النّساء اللواتي أسلمن حديثًا ودخلن لتوّهن في الإسلام وإلى المجتمع الإسلاميّ، وهذا يعتبر حكمًا فقهيًّا، وهو تكليف للنّبي الأكرم في تشخيصه لتكليف هذه النّسوة. ولو دقّقنا في هذه الآية سيظهر لنا أثناء هذا الحكم الفقهيّ بعض الخبايا غير الواضحة وما هي وجهة النظر الدينيّة والإسلاميّة عن الإنسان والمرأة والرجل والعائلة والذنوب والتوبة. فلو دقّقنا في هذه الآية، فسوف نفهم منها الجوانب المختلفة لهذه المسألة. وقد لا أتعرّض لهذه الدّقة في شرح هذه الآية، لكن كلّما غصنا ودقّقنا ونظرنا أكثر في هذه الآية سوف نحصل على مباحث أكثر، لذا سوف نقرأ هذه الآية وأحاول قدر الإمكان أن أبيّن بالتدريج المسائل التي هي محلّ البحث. يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ﴾ أي بايعنك، ومعنى البيعة هنا عقد الولاء معك، وهذه البيعة ستكون ضمن شروط تذكر في هذه الآية لا بدّ من تحقّقها لقبول بيعة الولاية، فإذا كانت هذه النّسوة يقبلن بهذه الشروط فإنّهنّ سوف يدخلن في ظلّ النظام الإسلاميّ

وتحت حكم رسول الله، وإذا قبلن بهذه الشروط فبايِعْهنّ واقبل بيعتهنّ. فما هي هذه الشروط؟

الشرط الأول: عدم الشرك بالله سبحانه وتعالى

تقول الآية القرآنيّة: ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾، فهذا هو الشرط الأوّل وهو نفي الشرك، لأنّ الحدّ الفاصل بين الإيمان بالله والكفر به هو هذا، فالشخص الذي يؤمن بالله سبحانه ولا يجعل معه شريكًا آخر فهو مؤمن، ويدخل في عهدة الإسلام، وأمّا الشخص الذي يؤمن بالله ولكنّه يُشرك معه أحدًا آخر، فهو خارج عن الإيمان بالله تعالى. ولا يخفى أنّ الشرك الذي ذُكر في هذا المورد هو الشرك الذي كان سائدًا في تلك الأيّام في مكّة، والمراد به ما كانوا يعتبرونه في موازاة الله سبحانه من تلك الأصنام، وأنّ لها الاختيار في هذا العالم، وأنّ لها الحلّ والفصل بأمور هذا العالم، فقد كانوا لا يعتبرون أنّ الله سبحانه وتعالى هو ربّ العالمين، بل كانوا يعتبرونه الإله الكبير ويوجد تحته وإلى جانبه آلهة عدّة مختلفة منها هبل واللات ومنات والعزّى وسائر أصنام مكّة ويثرب وبقيّة المناطق. فإنّ هذا النحو من الشرك لا وجود له في هذه الأيّام، لكن توجد أنواع أخرى من الشرك تشمله هذه الآية، كمن يعتبر بعض النّاس شركاء لله، فهناك من يعبد طواغيت العالم ويعتبرهم أربابًا، فهؤلاء يخرجون عن حدود الإسلام ويستقرّون في الطرف المقابل. ولا يخفى أنّ الشرك في بعض الأحيان يكون واضحًا ويعرف أنّ هذا الشخص مشرك بشكل صريح، لكن في بعض الأحيان لا يعرف الإنسان أنّ هذا شرك، مثل من؟ مثل ذلك الشخص الذي يقبل بحكّام الجور

وطواغيت العالم الذين تسلّطوا على أرواح النّاس، ويعتبر أنّ لهم إدارة الأمور ولهم السلطة ولهم وضع القوانين، فإنّ هذا شرك بالله أيضًا.

ونحن عندما نعتقد بالتوحيد فهذا يعني أنّ الله سبحانه وتعالى هو المؤثّر الأوّل في عالم التكوين وعالم التشريع، وهو الصانع الوحيد، والخالق الوحيد، والربّ الوحيد، وهو الذي يُدير ويدّبر الأمور وحده، فتكوين العالم بيده سبحانه، أي خلق هذا العالم، وكذلك العالم التشريعيّ بيد الله سبحانه وتعالى، أي أنّ وضع النُّظُم التي على الإنسان أن يلتزم بها ويطبقها ويعمل على وفق قوانينها في هذه الحياة هي من الله سبحانه وتعالى، فنحن نقول إنّ قانون الحياة الإنسانيّة لا بدّ أن يؤخذ من الله سبحانه، ويُلهم منه، لكن أولئك الأشخاص الذين يعتبرون أنّ الله هو مكوّن العالم -ويقولون «نعم إنّ الله خالق الإنسان والأرض والسماء والجبال وسائر الأشياء»- لكن لا يرون تشريع القوانين في هذا العالم لله سبحانه وتعالى بل يخرجونها عن القدرة والتدبير الإلهيّين، فهم الذين يضعون القانون، من دون الاعتماد على الله، ولم يأخذوا سلطتهم وحكومتهم على الناس من الله سبحانه وتعالى، ثمّ يتحكّمون بالنّاس كما هو حال سائر الحكّام وسلاطين الجور في كافّة أنحاء العالم كافّة، الذين كانوا على امتداد التّاريخ وما زالوا إلى الآن، فالشخص الذي يقبل بحكومة هؤلاء يعتبر مشركًا بالله أيضًا. طبعًا لا يترتّب عليه الآثار التشريعيّة للشرك، بمعنى أنّه لو كان المشرك نجسًا، أو لو افترضنا أنّ له أحكامًا خاصّة في حياته في هذا العالم أو في العالم الآخر، فإنّ هذه الأحكام الفقهية لا تنطبق على هذا

المشرك من النوع الثاني، لكنّه في الحقيقة أيضًا لا يكون موحّدًا، ولا يمتلك التوحيد الخالص، وليس له ثواب وأجر التّوحيد، ولا تترتب عليه آثار ونتائج التّوحيد في هذه الدّنيا، وليس له ثواب وآثار ودرجات التّوحيد في الحياة الآخرة، وليس له ذلك العلوّ والتسامي الروحيّ، وغير ذلك من الأحكام.

والخلاصة إنّ الشخص الذي لا يكون موحّدًا من هذا النوع لا يمتلك السّعادة والفلاح البشريين، لذا أنتم ترون أولئك النّاس الذين يعيشون في ظلّ حكومة الطواغيت، لا يمتلكون هذه الرفعة الإنسانيّة وهذا السموّ الإنسانيّ، ولا يمتلكون ذلك الفلاح والاستقامة؛ فإن الإنسان بمجرد أن ينحني في مقابل الطّاغوت ويقبل به -تلك السّلطات الكاذبة التي سيطرت على الإنسان بالقوّة وبدون تكليف أو تعيين من الله سبحانه وتعالى، ومن دون أن تنطبق عليها المعايير الإلهيّة، ومن دون أن يتعاملوا مع النّاس وفق الأحكام والأوامر الإلهية، ومن دون أن يجروا ويطبّقوا الأحكام الإلهيّة بين النّاس، فإنّ هذه السّلطات طاغوتيّة- فهو في الحقيقة قد أشرك بالله (أشرك بالله شيئًا)، وأعطى لهذا الإنسان مقدارًا من التّدبير الإلهيّ الخاصّ به، فلذلك لا يعتبر هذا الشخص عبدًا لله وإنّما هو عبدٌ للشيطان. وقد تعرّضت مرارًا لهذه المسائل في مباحث التّوحيد في الماضي، وشرحتُها كثيرًا بشكل مبسّط، وإن شاء الله تكون قد علقت بالأذهان، وهذا بحث طويل ومفصّل في باب التّوحيد، لذا نحن نعتقد أنّ المجتمع الموّحد هو ذلك المجتمع الذي يأخذ قانونه من الله، ويأخذ حكومته وسلطته من الله، ويأخذ طريق ونمط حياته من الله، وكلّ واحد من هذه الأمور له مجراه

الخاصّ، وله شكل خاص؛ فأخذ القانون من الله يعني أنه لا بدّ من أن يوضع وفق الأحكام الإسلاميّة، وأخذ السّلطة من الله يعني أنّ الحاكم لا بدّ من أن تنطبق عليه الصفات التي حددها الله للحاكم، فلا بدّ من ملاحظة الشروط التي ذكرها الله في القرآن وفي الروايات وفي نهج البلاغة وبواسطة أوليائه وعباده الصّالحين. فما هي الشرائط التي ذكرت للحاكم؟ وكلّ مجتمع لا يتحلّى الذي يترأّسه بهذه الشرائط يكون مجتمعًا عابدًا للطّاغوت، فشكل عابد الطاغوت وهيئته لا يختلفان عنّا، ونحن في زمن الطاغوت كنّا عبيدًا له، غاية الأمر كان بعض منّا -في الوقت الذي كان يستعبدنا فيه الطّاغوت- يقاوم وغير مستعد لأن يكون عبدًا له، بينما استسلم له بعض آخر، وأولئك الأشخاص الذين قاوموا يشملهم ثواب الله وهم المجاهدون في سبيله، وأمّا أولئك الأشخاص الذين لم يقاوموا في ذلك الوقت فقد كانوا عبدة الطّاغوت. لكن لا يخفى أنّه قد وصلت الأمّة في يوم من الأيّام إلى مرحلة نهضت بأسرها ضدّ الطّاغوت وثارت عليه، وخرجت من عبوديّته ودخلت في عبوديّة الله تعالى ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[1].

إذًا، نحن اليوم لسنا عبيدًا للطّاغوت، بل نحن عبيد لله سبحانه وتعالى، وشعبنا لا يعبد غير الله سبحانه وتعالى ولا يطيع أحدًا سواه. ولو أنّ شخصًا كان على رأس حكومة إيران ويدير هذه الجمهوريّة الإسلاميّة ولكنّه يعمل في غير طريق الله تعالى فإنّ شعبنا لن يرضى به؛ فلو أنّ زيدًا أو عَمرًا أو بكرًا قُبلوا بعنوان قيادة

(1) سورة البقرة، من الآية: 257.

هذه التشكيلات الحكوميّة -واعتبروا إمام الأمّة بعنوان قائد الثورة، وسائر المسؤولين بعنوان قادة لهذه التشكيلات- فلأجل أنّهم يعتبرون أنّ إمام الأمّة عبد لله سبحانه وتعالى، وسائر المسؤولين عبيد لله تعالى، ولو ثبت في وقت من الأوقات أنّ المسؤولين في هذه الدولة ليسوا عبيدًا لله فإنّ الشعب لن يطيعهم، هذا يعني أنّ مجتمعنا إذا أطاع أحدًا فهو يطيعه بعنوان أنّه إطاعة لله سبحانه، وهذا أمر جيد، وهذا هو المجتمع الموّحد. إذًا، يعتبر الفاصل أو الحدّ الأصليّ بين مجتمع التوحيد -المجتمع الإيمانيّ والإسلاميّ- والمجتمع غير الإيمانيّ هو هذه الكلمة، كلمة الشرك والتوحيد، هذه الكلمة هي التي تشخّص الحدّ الفاصل، لأنّ هناك أشخاصًا يؤمنون بالله ولا يكفرون به، ولكن في الوقت نفسه يجعلون له شريكًا، لذلك لا يقول: «على أنْ لا يكفرن باللّه شيئًا». وعلى هذا فإنّ أول شرط لدخول مجتمع التّوحيد والإيمان هو عدم الشرك بالله سبحانه حتّى لو كان مؤمنًا به سبحانه، بمعنى أنّه من الممكن أن يكون مؤمنًا بالله وفي الوقت نفسه مشركًا به، فلذلك لا بدّ من الخروج من الشرك، ولا يكفي عدم الكفر، بل عدم الشرك لازم أيضًا. هذا هو الشرط الأوّل. ولا يخفى أنّ هذا الشرط غير خاصّ بالنّساء، وإنّما يشترك به الرجال والنساء، لكن حيث كان الحديث عن النّساء ذُكر هذا الشرط. إذًا هذا هو الشرط الأوّل ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾.

الشرط الثاني: عدم السرقة

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَسۡرِقۡنَ﴾، فقد كان هذا الأمر رائجًا في

الجاهليّة، حيث كانت المرأة تسرق من زوجها، وهذه عادة سيّئة حيث تسرق المرأة من زوجها، في حين ينبغي أن تكون المرأة أمينة زوجها؛ ففي الوقت الذي تعتبر فيه أمينة على ذلك كانت تخون هذه الأمانة، فيسرقن من أزواجهنّ، ويسرقن من غيرهم أيضًا. وتشير هذه الآية ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ إلى هاتين الصورتين. ومن الأمور المهمّة التي يمكن استفادتها من هذه الآية هي ثقافة النّساء في عهد الجاهليّة، فإنّ هذه الأعمال التي يبايعن عليها ويعاهدن النّبي على عدم ارتكابها، هي تلك الأعمال التي كانت رائجة بين نساء الجاهلّة، فكم كانت تلك الجاهليّة جاهليّة سوداء؟ وهذه الأعمال التي تنهى الآية عن فعلها هي الأعمال التي كانت تقوم بها نساء الجاهليّة، أوّلها السّرقة، فإنّ نساء الجاهليّة كنّ بكلّ سهولة يسرقن. وقد ورد في الرواية أنّه بعد فتح مكّة جاءت النّسوة إلى النّبي الأكرم، وكنّ يأتين إليه واحدة تلو الأخرى يبايعنه على الإسلام، وكان من ضمنهن هند زوجة أبي سفيان، وقد جاءت متخفّية كي لا يعرفها النّبي، لأنّها كانت امرأة معروفة والجميع في مكة يعرفونها، وقد أساءت للنّبي -أرسلت غلامها (وحشيّ) لقتل الحمزة واستخرجت كبده الشريفة بعد استشهاده وحاولت أكلها، وكانت تقوم بمختلف الأعمال السيّئة- لذلك حاولت أن تخفي نفسها عن النّبي لكي لا يعرفها مخافة منه، ومن ثمّ قال النّبي -تحدّث عن هذه الأعمال التي نقرأها في الآية- إنّه لا بدّ أن تعطين عهدًا ألا تقمن بهذه الأعمال: ألا تشركن بالله، قالت [هند] قبلنا، ولا تسرقن، وعندما قال النّبي لا تسرقن جمعت هند نفسها وقالت: إنّ أبا سفيان رجلٌ ممسك وإنّي أصبتُ من ماله هنات، فلا أدري أيحلّ لي أم لا، فقال أبو سفيان:

ما أصبتِ من شيء فيما مضى وفيما غَبَر فهو لكِ حلال، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها، فقال لها: وإنّك لهند بنت عتبة؟ قالت: نعم، فاعفُ عمّا سلف يا نبيّ الله عفا الله عنك[1].

فلاحظوا كم كانت عظمة النّبي الأكرم حيث لم يعاقبها ولم يعاتبها، فلم يقل لها إنّك أرسلت غلامك لقتل حمزة واستشهد بسببك، هذه عظمة النّبيّ.

الشرط الثالث: لا تزنين

لا بأس في أن نشير إلى هذه الجملة لنعرف حال هند؛ فبعد أن قال النّبي ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ قالت هند: أوَتزني الحرّة؟ فقد كانت هند من النّساء المعروفات بهذه الأعمال في مكّة، وكان أحد أصحاب النّبي واقفًا فتبسم من قولها، لأنّه كان يعرف ما جرى بينه وبين هند في الجاهليّة[2]، وكان هناك علاقات بين هند وكثير من الرجال في عهد الجاهلية، لكن بعد أن جاءت تعاهد النّبي نلاحظ كيف كانت

(1) وروي أن النبي صلى الله عليه وآله بايعهن وكان على الصفا، وكان عمر أسفل منه، وهند بنت عتبة متنقبة متنكرة مع النساء خوفًا أن يعرفها رسول الله ﷺ فقال: «أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئا» فقالت هند: إنك لتأخذ علينا أمرًا ما رأيناك أخذته على الرجال، وذلك أنه بايع الرجال يومئذ على الإسلام والجهاد فقط، فقال النبي ﷺ: ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾، فقالت هند: إنّ أبا سفيان رجل ممسك، وإني أصبت من ماله هنات، فلا أدري أيحل لي أم لا، فقال أبو سفيان: ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها، فقال لها: «وإنك لهند بنت عتبة؟ » قالت: نعم فاعف عما سلف يا نبي الله عفا الله عنك، فقال: ولا تزنين، فقالت هند أوتزني الحرّة؟ فتبسّم [أحد أصحاب النبيّ] لما جرى بينه وبينها في الجاهلية. بحار الأنوار، ج:21، ص: 98/ راجع تاريخ الطبري، ج: 2، ص: 327 و328.

(2) بحار الأنوار، ج:21، ص: 98.

تصرّ على كلامها [وتتظاهر بالعفّة] (أوَتزني الحرّة؟) إلى آخر الرواية. والهدف من الآية والشرط لقبول البيعة هو أن لا يسرقن ولا يزنين، حيث كان هذا الأمر رائجًا بين نساء الجاهليّة، سواء كن متزوجات أو غير متزوجات، فإنّهن كنّ يُقِمنَ علاقاتٍ غير مشروعة مع الرجال، وهذا من الأمور التي تحرق جذور المجتمع الإسلاميّ وأسسه، لأنّ المجتمع الإسلاميّ يبنى على المحبّة والعطف بين أفراد العائلة، والزنا يُجفّف هذه الوردة الجميلة ويمنع رائحة المحبّة والعشق والعاطفة العائليّة، إنّه لذنب كبير جدًّا، لذلك كان الشرط أنّكنّ إلى الآن كنتن نساء مشركات، فسواء كنتنّ قد قمتن بهذه الأعمال السيّئة أم لا، فاعلمن الآن أنّكنّ إذا دخلتنّ المجتمع الإسلاميّ فلا بدّ من أن تبتعدن عنها، فتؤذين هذا البستان المعطّر في المجتمع الإسلاميّ، وعليكنّ أن لا تدخلن هذه المصائب ولا هذه الأمراض والآفات التي كنتنّ تقمن بها في تلك الأيّام إلى المجتمع، لذا لا ينبغي أن يدخل الزنا إلى المجتمع الإسلاميّ، فالإسلام واجه مسألة الزنا بشدّة وأنتم تعلمون ذلك.

الشرط الرابع: عدم قتل الأبناء

والشرط الآخر عدم قتل الأبناء ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾، فإنّ نساء الجاهليّة كنّ يقتلن أولادهنّ، وقتل الأولاد على نحوين: الأوّل: قتل الولد بعد تولّده في هذه الدّنيا، فبعض النّساء لم يكن عندهنّ الرغبة بالاحتفاظ بالأبناء، وبمجرّد مجيء الولد إلى الدّنيا كنّ يقتلنه، لأنهنّ يردن أن يبقين أحرارًا فالولد يزعجهن، كما كان يحصل مع بعض النّساء في مرحلة الطاغية والنظام البائد -والحمد لله قد تمّ

التخلّص من هذه العادات السيّئة أو انحسرت إلى حدّ كبير- فعندما يولد هذا الولد ففي بعض الأحيان كانوا يقتلونه جوعًا، فلا يرضعونه لأنّ المرأة تريد أن تحافظ على جسمها، فلا تعطي الحليب لابنها فيجوع الولد ويبقى بلا غذاء، وعندها إما يضعف وإمّا يموت، وإذا بقي حيًّا فإنّه يكون ولدًا ضعيفًا (لا قيمة له في المجتمع)، وأحيانًا يكون المولود بنتًا وهم لا يحبّون البنات ويعتبرون البنت عارًا فيقتلونها، وأحيانًا على فرض المثال قد يكون في هذا الولد علّة أو عيب- كأن يكون له ستّة أصابع، أو عينه فيها عيب- فكنّ يقتلن هذا الولد، وفي بعض الأحيان كنّ يسقطن الولد وهو جنين، فلا بدّ أن يُعلم أنّ إسقاط الجنين أيضًا هو قتل للنفس، ولا فرق بين إسقاط الجنين وبين قتل الولد المتولّد في الدنيا.

والأمّ التي لم يولد ابنها بعد، وما زال في رحمها، قد لا تحبّ هذا الولد ولا تتعلّق به، لذلك من الممكن أن تتخلّص منه بسهولة فتقتله -لكن عندما يولد الولد وتنظر الأمّ إليه وتسمع صوته وترى حركاته يتعلّق قلبها به وتحبّ أن يبقى حيًّا لفترة أطول، وكلّما مضى الوقت ازداد التعلّق به- ولا يختلف الأمر فيما لو كان الولد في الرّحم ولم يولد، فإنّ قتل الولد قتلٌ، سواء كان في الرحم أم خارجه، لذا يعتبر هذا من المحرّمات الكبيرة التي نهى عنها الرسول الأكرم ﷺ.

الشرط الخامس: عدم البهتان

وتذكر الآية القرآنيّة شرطًا آخر وهو ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾، والبهتان يعني التّهمة الكبيرة، التهمة التي تبهت الطرف الآخر، ففي بعض الأحيان قد يتهمون شخصًا بأنّ فلانًا

في ذلك المكان قد تكلّم بهذا الكلام المخالف، فإنّ هذا الشخص لا يتوقّع منه في هذه المسألة ردّة فعل مخالفة. لكن في بعض الأحيان يكون هناك شخص بريء، إنسان بلا ذنب، فينسب إليه ذنب كبير، عندها يبهت هذا الشخص فتحصل عنده حالة البهت، هذا ما يعبّر عنه بالبهتان، فالبهتان يطلق على ذلك الذنب وعلى تلك التهمة وذلك الافتراء الكبير الذي يجعل من الشخص أو من الأفراد مبهوتين. وهذا شرط آخر وهو موّجه إلى هؤلاء النّسوة على ألا يقمن بالبهتان على أزواجهنّ، والبهتان المتحقّق بين أيديهنّ وأرجلهنّ، وهذا التعبير تعبير كنائيّ، وهو يعني ألا ينسبن هذا الولد من الغير لأزواجهنّ، فقد تزني المرأة أحيانًا، وتنسب هذا الولد لزوجها، وهذا ذنب آخر، فالزنا ذنب، ونسبة الولد لغير أبيه ذنب آخر. وما يمكن أن يُفهم من ظاهر الآية هو: بما أنّه ذكر الزنا أولًا ونسبة هذا الولد إلى الزوج وهو ليس منه، وإنّما هو متولّد من الزنا، فإنّ ذلك يعدّ ذنبًا آخر، لأنّ الزوج يطمئنّ إلى زوجته، ويطمئنّ إلى فراشه، ويعطيها الأمان ويطمئنّ إلى عفّتها ويريد أن يكوّن منها أسرة ويزداد نسله، ويكون أبناؤه أبناء حلال، فلو خانت هذه الزوجة زوجها فسيكون الأبناء أبناء غير شرعيين [وليسوا بأبناء حلال]. إنّ من أكبر الأعمال التي يمكن تصوّرها أن تنسب المرأة الولد لزوجها وهو ليس منه، فهو ذنب كبير؛ لذلك ورد التعبير عنه بالبهتان.

الشرط السادس: اجتناب عصيان النّبي ﷺ في تعاليمه

ثمّ تبيّن الآية القرآنيّة شرطًا جديدًا وهو: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾، فلا عصيان للنّبي في كلّ عمل حسن يأمر به، بمعنى

أنّ كلّ عمل يأمر به النّبي فلا بدّ من القيام به. ولا يخفى أنّ الأعمال التي يأمر بها النّبي جميعها حسنة وتعدّ جميعها معروفًا، فالمعروف يعني العمل الحسن أيّ العمل الذي يقرّ به العقل الإنسانيّ والوجدان الإنسانيّ ويعترف به، هذا ما يعبّر عنه بالمعروف، وكلّ عمل يقول عنه النّبي لا بدّ من الاعتراف به، لكن لماذا عبّرت الآية ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾، والخطاب فيها للنبيّ كما يفهم من ضمير المخاطب، ولم تقل ولا يعصين الله؟

الجواب: أولًا لأنّ الشيء الذي يقوله النّبي يقوله الله حتمًا، وكلّ ما جاء به النّبي صحيح، يقوله تعالى ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[1]، فكلام النّبي وكلام الله واحد.

ثانيًا: يُعتبر النّبي وليّ أمر المسلمين، ولا بدّ من أن يُسمع كلام الله من لسان النّبي، ولا معنى لأن يأتي شخص في المجتمع ليقول: «أنا مخلص لله وكلّ ما يقوله الله على عيني وأقبل به، فأنا عبد لله سبحانه وتعالى، لكن لا أعترف بكلام النّبي!» هذا الأمر غير ممكن. نعم لقد كان بعض الأشخاص يقولون هذا الكلام في تلك الأيّام. لكنّ الله سبحانه وتعالى يُبيّن في هذه الآية ويحدّد مجرى الأمر الإلهيّ، فلا يتوهم أحد أنّ ما يظنه حسنًا فهو حسن والله يقول به. الأمر ليس كذلك، فإنّ ما يقوله الله يُبيّنه على لسان النّبي وعبر أوامر النّبي، وما يقوله النّبي فهو كلام الله. لذا ورد في هذه الآية ذكر النبيّ (الضمير الذي يعني به النّبي)، ليبيّن في هذه الآية آمريّة وحاكميّة النّبي في المجتمع، وممثليّة النّبي الأكرم عن الله سبحانه.

(1) سورة النساء، من الآية: 80.

ويقول تعالى في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1]. لماذا وضع أولي الأمر مكان النّبي؟ لأنّه عندما ينتقل النّبيّ من بين النّاس إلى ربّه فإنّ الجميع سيقول نحن مخلصون للنّبي ونقبل كلام النّبي، ولكن ماذا كان يقول النّبي؟ فإنّ كلّ شخص سوف ينقل ما يحلو له عن النّبي، وكلّ شخص يسير بطريق يدّعي أنّه طريق النّبي. هنا لا بدّ من الانتباه جيّدًا، فإنّهم سيؤوّلون كلام النّبيّ، ولكي لا يحصل هذا الأمر فقد حدّدت الآية وشخّصت أولي الأمر. هذا هو حال المجتمع الإسلاميّ، ويحصل هذا الأمر نفسه في أيّامنا، فالشخص الذي يريد أن يلتزم بكلام الله والرسول والقرآن وطريق الأنبياء والأولياء لا معنى له أن لا يطيع هذا النّظام الذي على رأسه وليّ الأمر -إمام الأمّة- ويقول في الوقت نفسه أنا العبد أسير على طريق الله. كلا، إنّ هذا طريق الشيطان وليس طريق الله، وهذا طريق النفس الأمّارة لذاك الشخص الذي يقوم بهذه الأعمال؛ فإنّ الشخص الذي يريد أن يسير على طريق الله لا بدّ أن يسير على هذا النحو من الطريق، فقد حدّدت الآية العلَمَ والشاخص. وأولئك الأشخاص الذين يدّعون السير على طريق الله ولكنّهم في الوقت نفسه لا يطيعون وليّ أمر المسلمين ويؤولون الأحكام الإسلاميّة والآيات القرآنيّة والمفاهيم الإسلاميّة ويوجهونها كما يحلو لهم، إنّ هؤلاء الأشخاص يُشبهون تمامًا أولئك الأشخاص الذين كانوا في صدر الإسلام وكانوا يقولون نحن عبيد لله ولكن لا نقبل بكلام النّبيّ. لذا ولكي يحدّد ويعلم

(1) سورة النساء، من الآية: 59.

الملاك والشاخص لهذا الطريق تقول الآية ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ أيّ لا يعصينك أيّها النّبي في أيّ معروف تقوله.

البيعة كمال الإيمان

لو أنّ هذه النّسوة قبلن بهذه الشروط وبايعنك عليها عندها ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾، لا إشكال في ذلك. وهنا توجد نكتة لا بدّ من بيانها وهي مسألة البيعة، فالبيعة بعد الإيمان، وهي ضروريّة، والبيعة عبارة عن نوع من التعهّد، فلو أنّ شخصًا آمن لكنّه لم يبايع النّبي فهذا غير مقبول منه، فلا بدّ أن يؤمن ولا بدّ أن يبايع النّبي أيضًا. والبيعة قد تتحقّق عن قرب وقد تتحقّق عن بعد أيضًا. ومرادنا من البيعة الحضوريّة هي المصافحة. وكما كنّا قد ذكرنا سابقًا كانوا يبايعون النّبي واحدًا تلو الآخر، ويمكن أن تتمّ البيعة عبر مُمثّل النّبيّ، وعلى كلّ حال لا بدّ من البيعة، أيّ أن يذهبوا ويتعهّدوا ويقولوا نحن نقبل بك فلا يكفي مجرّد الإيمان. هذا التعهّد يُطلق عليه اسم البيعة. والبيعة عند الإنسان تُوجِد فيه التزامًا قلبيًّا وهذا عمل جيّد جدًّا، فما أحسن ما نتعهّد ونلتزم وبه وأن نكون عند تعهّداتنا والتزاماتنا وبيعتنا. والنّاس تُبايع في هذه الأيّام من خلال المسيرات والتظاهرات والشعارات، ولا يوجد أفضل ولا أجمل من هذه البيعة. ولكن أولئك الأشخاص الذين يقبلون بهذه الظروف وهذه الأوضاع لكنّهم جلسوا جانبًا ولا يدخلون المعركة من الأساس، فلا يشاركون في التظاهرات ولا في المسيرات ولا في صلاة الجمعة ولا في المناسبات الاجتماعية، ولا يشاركون في الانتخابات، يجلسون بعيدًا عن الأحداث ويقولون في الوقت نفسه نحن نقبل

(بهذا النّظام). في الواقع إنّ هذا الأمر غير مقبول منهم، ولا فائدة ترتجى منه، والقبول غير كاف، فلا بدّ لهم من البيعة، ولا بدّ أن يأتوا ويعقدوا تعهّدًا وبيعة بين أنفسهم وبين وليّ أمر المسلمين في المجتمع الإسلاميّ. لقد كان يحصل هذا الارتباط في ذلك الوقت في المجتمعات الصّغيرة حيث كان أعداد أفراد المجتمع محدودًا. نعم كانوا يذهبون إلى النّبيّ على الترتيب واحدًا تلو الآخر فيبايعونه ويضع النّبي يده -اليد اليمنى وأنا أستخدم يدي اليسرى- في الأعلى وأولئك الذين يبايعون يضعون أيديهم تحت يد النّبيّ وتستقرّ هاتان اليدان معًا، تمسك هذان اليدان بعضهما بعضًا، عندها تتحقّق البيعة. وعندما كان النسوة يذهبن إلى البيعة لم يكن يمددن أيديهنّ للنّبي -لأنّ النّبيّ كان يقول أنا لا أصافح النّساء- ولكن كان يدخل النّبيّ يده في وعاء ماء وبعد ذلك يخرجها، ومن ثمّ تأتي المرأة وتدخل يدها في الماء ثمّ تخرجها، عندها تتحقّق البيعة منها. إنّ هذه الطريقة أن تمسك اليد باليد الأخرى، أو تدخل اليد في الماء وتخرج ثمّ تدخل يدٌ أخرى وتخرج، من الناحية العمليّة الخارجيّة والماديّة والفيزيائيّة ليست بالأمر المهمّ، لكن من ناحية أخرى هذا العمل يُوجد تعهّدًا ويوجد تعيينًا، ويشعر الإنسان أنّه قد حقّق بيعة والتزامًا بينه وبين ذلك الشخص الذي بايعه. هذا الالتزام وهذا التعهّد مهمّان جدًّا والبيعة أمر ضروريّ.

إذًا، تقول الآية القرآنيّة بايع النّسوة على هذا النّحو إذا حضرن إليك وقبلن بهذه الشروط.

طلب المغفرة من الله

بعد تحقّق البيعة ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾، بسبب ذنوبهن الماضية استغفر لهذه النّسوة واطلب المغفرة من الله، كي يغفر لهنّ ذنوبهنّ الماضية، فهل الله سيغفر لهنّ؟ نعم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فالمرأة التي كانت تفعل السيّئات كلّ عمرها، كانت ترتكب تلك الأعمال التي تمّ النّهي عنها، وكانت النّسوة يرتكبنها، فكنّ يشركن بالله ويسرقن ويزنين ويبهتن أزواجهن ويفترين عليهم، وكنّ يقمن بسائر الأعمال غير المقبولة، لكنهنّ الآن جئن إلى النّبيّ بقلوبٍ نظيفة وطاهرة وبنيّاتٍ خالصة وأظهرن إيمانهنّ بالله تعالى، فلا بدّ من قبولهن، ولا نقول لهنّ: إنكنّ كنتنّ سيّئات، وكنتنّ فاسدات الأخلاق لذلك لا نقبل بكنّ الآن، كلا، فإنّ هذ العمل غير صحيح.

ضرورة استقبال التائبين

يوجد في مجتمعنا أشخاص يشغلون منصب اختيار الأشخاص، سواء في الجامعات، أم في الإدارات، أم في الأماكن المختلفة. هؤلاء لا بدّ أن ينتبهوا إلى هذه المسألة، هل الأشخاص الذين وقعوا في السابق بالفساد الأخلاقيّ لكنّهم الآن ليسوا فاسدين، ثمّ أتوا ليصبحوا مسلمين أو ليصبحوا مع الثورة فهل نقبل أشخاصًا كهؤلاء؟ قد يقول بعضٌ: «كلا، لأنّ هذه الفتاة كانت في عهد الطاغوت في الجامعة، على سبيل المثال، سيّئة الأخلاق، فكانت تضحك وتمازح الشباب، كانت ترتدي اللباس الفاضح، لذلك نحن لا نقبل بها». كلا، فليس هذا هو المعيار، المعيار هو حالها الآن، هل الآن هي امرأة جيّدة؟ هل ترتدي اللباس المناسب أمام من لا يحلّ لها امتثالًا

لأمر الله؟ هل تصون نفسها؟ إذا كانت كذلك فلا بدّ من قبولها، ومن الطبيعيّ تقول الآية القرآنيّة ﴿فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ﴾[1] وهذا يعني أنّه لا ينبغي أن تنطلي الخدع على المسؤولين وتمرّر عليهم، لأنّه يوجد في بعض الحالات أشخاص انتهازيون يستغلّون المواقف، فالرجال يربّون اللحى والنّساء يُغطين رؤوسهن ويحسّنّ حجابهن الإسلامي ويصبح الجميع ثوريين مائة بالمائة! فإنّ هذا الأمر غير كاف، فلو فهم المسؤولون أنّ هذه المرأة أو هذه الفتاة قد ابتعدت عن الفساد الأخلاقيّ، ولأجل الله ولأجل الثورة وعملًا بالأوامر الإلهيّة، فلم تعد تمارس تلك التصرفات الفاسدة، ولا تريد أن تفعلها مجددًا، وتريد أيضًا أن تصون نفسها، فلا بدّ من قبولها، ومن الخطأ وضع العراقيل أمام الأشخاص وتوجيه الأسئلة المعقّدة والمتنوّعة والكلام الصعب معهم، الذين يريدون أن يتقدّموا إلى موقع إداريّ. وقد تحدّثت بخصوص الجامعة أيضًا مع المسؤولين المعنيين بهذا الشأن، وقلت لهم ألا يأخذوا المعيار بالفساد الأخلاقيّ السّابق، وإنّما المعيار هو الفساد الأخلاقيّ الحالي؛ لكي يُمنع الشخص من تولّي المسؤوليات الإداريّة، فالفساد الأخلاقي الحالي هو المعيار في رفضه، طبعًا، لو كان فاسد الأخلاق سيؤدّي في مجتمع معيّن إلى فساد أخلاق الآخرين، فلا بدّ من منعه، ولكن الأشخاص الذين كانوا في الماضي فاسدين ولكنّهم الآن أصبحوا صالحين ومستعدّين لأن ينسجموا مع المجتمع الإسلاميّ ولا يفسدون فيه فما المانع من دخولهم إلى هذا المجتمع؟ إنّ هذا الأمر ينطبق على الإدارات أيضًا، فلا ينبغي أن نكون متشدّدين في غير مكان التشدّد، فإنّ هذا الأمر يُخالف

(1) سورة الممتحنة، من الآية: 10.

المنطق الإسلاميّ والمفاهيم الإسلاميّة. لقد شاهدتُ البعض كيف يتشدّد في غير موقع التشدّد في عمليّة اختياره للأشخاص، فكان يسأل بعض الأسئلة العجيبة والغريبة، وأسأل الله تعالى أن يوفّقني للتحدّث مع المسؤولين بالنسبة لهذه المسألة وأؤدّي حقّ هذا الأمر لنأخذ القرار المناسب واللازم. وقد قدّموا لي بعض التقارير، أنقل لكم واحدًا منها: لقد جاء أحد الأشخاص من الأصدقاء القدامى وتقدّم منّي وكان من إخواننا وطرح عليّ سؤالًا وقال: القاسم عليه السلام بمن أكثر الناس شبهًا؟ وأنا في ذلك الوقت لم أكن متذكرًا وفكّرت في نفسي وقلت: إنّ عليّ الأكبر عليه السلام كان أشبه النّاس بالنّبي -فقد ورد في الحديث «أشبه النّاس خلقًا وخُلُقًا ومنطقًا برسول الله»[1]- لكن القاسم لم أكن أذكر أنّه يشبه النبيّ الأكرم، فقلت طبق القاعدة هو أكثر شبهًا بالإمام الحسن عليه السلام، فقال هذا الشخص: سيّدنا أنت مرفوض[2]، فقلت: لماذا مرفوض؟ قال: نعم، لأنّه في امتحان الحصول على وظيفة إداريّة وللدخول إلى هذه الإدارة طُرح هذا السؤال على آنسة في أحد الأماكن -ولا يهمّ أيّ مكان الآن- وقد طرح الشخص المعيّن لاختيار الأشخاص وتعيينهم بعض الأسئلة، من ضمنها كان هذا السؤال: القاسم بمن أكثر النّاس شبهًا؟ وتلك المرأة لم تستطع أن تعطي الجواب الصحيح، فرُفضت! انظروا ما هذا الفكر؟ أيّ نحوٍ من التفكير هذا؟ أين يوجد هذا الأمر في الإسلام؟ فهل تعتبر معرفة شبه القاسم جزءًا من أصول الدّين؟ جزءًا من فروع الدين؟ جزءًا من المستحبات؟ ما هي نهاية هذا الأمر؟ ما هذه

(1) بحار الأنوار، ج: 45، ص: 43.

(2) وهنا ضحك السيّد القائد وجميع الحضور.

السليقة الموجودة عند بعض الأشخاص؟ كلا، إنّ هذا النّحو من السوابق [السيّئة] ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فالله هو الغفور، وكذلك هو ﴿رَّحِيمٌ﴾[1]، فهو يغفر الذنوب الماضية، ويرأف بهم أيضًا في الحال الحاضر ويرحمهم ويحبّهم. فالإسلام يلغي الماضي، «الإسلام يجبّ ما قبله»[2]. الثورة ثورة، وهي تعني التغيير والتبديل، أليس كذلك؟ فهؤلاء شبابنا الأعزّاء الذين في الجبهات، وهذه الحركة العظيمة التي قام بها شبابنا حيث كانوا يذهبون إلى الجبهات من كلّ مدن إيران، ثمّ اشتدّت هذه الحركة، وقد أصبحت الآن أكثر شدّة فيذهبون إلى الجبهات ويضحّون بأنفسهم، أو أنّهم يذهبون إلى الجيش، أو إلى الحرس وغير ذلك، ويضحّون بأنفسهم داخل هذه المؤسّسات. أين كان هؤلاء الشباب قبل ثلاث سنوات من الثورة؟ فقبل سنة ونصف من الثورة حصلت ثورة عامّة، ولكن كم واحدًا من هؤلاء الشباب كان مع الثورة قبل ثلاث سنوات من انطلاقتها!؟ عندما بدأت الثورة غيّرتنا جميعًا، وصنعت من وجودنا النّحاسيّ ذهبًا، فعلّمتنا الفداء، وحوّلت الجبناء إلى شجعان، وحرّرت تلك القلوب المغلقة والمقفلة، والأشخاص الذين كانوا يخافون من بعض ضربات الجلاد، أو من نظرات الغضب، أو من بعض الشتائم، أصبحوا في المقابل لا يهابون الهجمات العظيمة لسياسة الأعداء العالميين على أمّتنا، وكذلك الأمر أصبحت قلوبنا أشدّ قوّة في مواجهة الهجمات العسكريّة، فلم نعد نخاف من أيّ شيء، حتّى أمريكا التي تتّهمنا وتنسّق مع أعدائنا فإنّنا لا نبالي

(1) سورة الممتحنة، من الآية: 12.

(2) عوالي اللآلي، ج: 2، ص: 54.